

الماركسية والاشتراكية

مصطفى محمود



دار المعارف بمصر

الناشر: دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع. ٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحرية أولاً



الحرية هي نقطة البدء

وليست الحرية هي أن نجد ما نأكله (كما يعرفها بذلك الماديون أصحاب
فلسفة المضمون الاجتماعي للحرية) فالحيوان يجد ما يأكله . وضمان
الطعام لا يكفي لجعل من الإنسان إنساناً . . فالإنسان حيوان حرّ يفكر لنفسه ،
ويقرر لنفسه ، وقد يختار الجوع فيصوم ، وقد يختار الموت دفاعاً عن قضية
فيموت . . وقد يتطوع في حرب انتحارية يعلم أنه لن يعود بعدها ، لأنه قرر
أن يقول : « لا » .

وفي هذه القدرة على أن يقول « لا » للظلم ، « لا » للباطل ، يكمن المعنى
الوحيد لحرية .

فإذا سلبناه هذه الحرية فإننا نسلبه في الوقت نفسه الوسيلة الوحيدة لخلاصه . .
فلا فضيلة لمن يطيع القانون خوفاً .

وأمام الخوف والإرهاب يمكننا أن نتصنع الفضيلة ، ولكن لا يمكننا أن
نكون فضلاء حقيقة لأن الخوف يسلبنا الكرامة . . والعطاء يستحيل أمام
من يذكرني في كل لحظة أنني مجبر مكره على العطاء . . وأى عطاء هذا الذي

سوف أعطيه . . ربما أعطيت بالقول والكلام وبالكذب والنفاق ، ولكنى لن أعطي بالفعل . . والنتيجة هي مجتمع المخاوف والزلقى ، وطلب الحماية بالتقرب إلى السلطة وطلب الأمان بالكذب على الرؤساء وطلب المنفعة بالتجمع فى شلل .

والإجادة والإتقان والعمل بضمير وإخلاص قيم لا يمكن إحكام الرقابة عليها ، والنتيجة أن الحاكم لن يجد الوسيلة إلى ذلك المستوى من الإنتاج الذى يحلم به لأن المحبة مفتقدة ، والخوف هو الذى يقف رقيباً على جميع الآلات .

أما الكلام عن نشر الأخلاقيات الجديدة بالتلقين المستمر عن طريق الإذاعة والشعارات والملصقات فهو تفأؤل ساذج . فالأخلاق تنمو بتفاعل من الداخل وليس بالإملاء . . والتلقين مجرد طلاء من الخارج ، إن لم يجد السطح الملائم لاستقباله فإنه يجف ويسقط من فوقه بعد قليل .

التغيير الأخلاقى أعمق كثيراً من مجرد التلقين ؛ إنه اقتناع داخلى ، وارتباط وجدانى ، واعتناق يحتاج إلى الحرية المحضة .

والجندي الجبان لا يمكن أن يتحول إلى جندي شجاع بعد برنامج إذاعة . . والمؤثرات العفوية التى يمكن أن تلقىها كلمة إذاعية فى قلب جندي ما تلبث أن تبخر بعد أول طلقة . . وإنما شجاعة المحارب لا تكون إلا نتيجة إيمان واقتناع ومحبة مطلقة لشيء يؤمن به ويدافع عنه حتى الموت . . هذا الشيء لا يمكن أن يعتنقه إلا عن حرية كاملة واختيار . . الحرية هي روح الموقف الأخلاقى .

وبدون الحرية لا أخلاق ولا إخلاص ولا إبداع ولا إتقان ، ولا واجب ؛ فمن أجل أن نلتزم بواجب لابد أن نأخذه على عاتقنا بكامل حريتنا ، لا لمجرد تكليف من رئيس .

وتأجيل الحرية بدعوى الوصاية على الشعب فى مرحلة انتقال هو قرار فى الوقت نفسه بتأجيل الصدق والأمانة والشجاعة الضرورية لقيام المجتمع السليم . الحرية إذن هي نقطة الانطلاق .

ولكن الحرية الآن موضوع مختلف عليه ، وكل فرقة سياسية تفهمها فهماً خاصاً .

وقد ظلت الدماء تسيل بطول التاريخ في صراع المبادئ والطبقات ، وكان القتلة من جميع الأطراف يقتلون دائماً باسم الحرية وتحت رايتها .
والحرية اليوم عند أهل اليمين غير الحرية عند أهل اليسار .

الحرية في النظام الرأسمالي هي أن تفعل ما تشاء ، وتمتلك ما تريد . . . إن شئت امتلكت صحيفة ودار نشر ومحطة إذاعة ومجمعاً للحديد والصلب ومنجماً للنحاس وآباراً للبتروك ، مادمت تدفع الضريبة وتملك الثمن . . . ولكن هذه الحرية سوف تتفاقم آلياً لتصبح احتكاراً يتحكم في السلعة وفي السعر وفي البورصة ، وبالتالي سوف تسلب الآخرين حرياتهم وتستغلهم وتتحكم في رقابهم . . . ومن رأس المال الذي سوف يتضاعف تلقائياً سوف يصبح في إمكانك أن تشتري أصوات الناخبين ، وتدخل البرلمان ، وتؤلف حزباً ، وتوجه دفعة الحكم لصالحك ، وتثير الحروب لتشغيل مصانعك ولترويج ما تنتج من بنادق ودبابات ، وبالتالي سوف تزداد الرقعة التي تتحكم فيها في رقاب الآخرين ، وسوف تتضاعف قدرتك على سلب الحريات ، لتتحول في النهاية إلى استعمار وإلى تدمير وتخريب وقتل تصدره إلى الخارج كل يوم . . . وحرياتنا في مقاومتك لن تتجاوز صرخات في الهواء وقصاصات ورق . . . مجرد عواء في خواء .

وحريتك بهذا المعنى تضمنت عبوديتنا من البداية . . . وسوف تنتهي إلى عبوديتك أنت في النهاية . . . عبوديتك لرأس المال الذي وقفت نفسك على خدمته . . . وفي النهاية سوف تصبح وقوداً للحرب التي تشعلها .

والحرية بهذا المعنى تناقض نفسها ، فهي تقضي على حرية الآخرين ، وفي النهاية تقضي على حرية صاحبها .

ولهذا رفضنا الحرية بالمعنى الرأسمالي .

فإذا جئنا إلى اليسار فإننا نجد الحرية بالمفهوم الماركسي هي حرية تغيير العالم وإعادة بنائه وفق خطة الحزب . . . وهذا لا يتم إلا بخطوات تأخذ بعضها برقاب بعض . . . أولاً لابد من تحطيم رأس المال والعلاقات الرأسمالية التي تقوم على الاحتكار والاستغلال ، وذلك بنزع ملكية المصنع والأرض ووسائل الإنتاج كافة ووسائل الإعلام كافة من صحافة وإذاعة وكتب ، وإدارتها من جهة الحكومة لصالح الشعب العامل . وكمرحلة مؤقتة تتولى الطبقة العاملة بصفتها الطبقة صاحبة المصلحة إعلان الدكتاتورية ، وحينما تنجز دكتاتورية العمال رسالتها ، وتقضى على الطبقة البورجوازية ، وتحقق مجتمعاً لا طبقياً ، تنحل الدكتاتورية من تلقاء نفسها ، بل تنتهي الحكومة ، لأنه لن يعود لها داع ، ويصبح الإنتاج من الكثرة والوفرة بحيث يأخذ كل واحد حسب حاجته ، ويعمل كل واحد حسب طاقته ، في مجتمع نموذجي تسود فيه الإنسانية وينتهي الطمع . . . هكذا كانت أحلام الماركسية . . . ولكن الواقع اختلف كثيراً عن الحلم ، ليس فقط بسبب سوء التطبيق ، ولكن بسبب ثغرات في النظرية ، فالدكتاتورية أتت ومعها مجتمع الخوف . . . وجهاز الحزب الذي يتألف من ملايين تحول إلى طبقة جديدة من المنتفعين لها مصلحة في البقاء مستمتعة بجميع مميزات الحزب ؛ وبحكم إغراء تلك المصلحة أصبح من الممكن أن تخون القاعدة بمثل ما يخونها عضو البرلمان الرأسمالي ، تساعدها الدكتاتورية ومراكز القوة التي تبجد نفسها متربعة فيها .

وفي حضور الخوف وغياب المبدأ الديني تدهورت الأخلاق ، وظهر غول جديد اسمه البيروقراطية ، وأصبحت السلعة التي كان يسرقها رأسمالي واحد يشترك الآن في سرقتها جيش من الموظفين ، من البائع إلى المتعهد إلى المفتش إلى مدير الجمعية الاستهلاكية ، إلى موظفي الجمعية التعاونية ، وتسربت المكاسب الجديدة من هذا الغربال المليء بالخروق .

ولجأ النظام إلى فكرة الحوافز والمكافآت لإثارة النفوس التي تكاسلت ،

ولكنه لم يفعل أكثر من الترقيع الخارجى ، فلم تكن الحوافز أكثر من مزيد من الرشوى . . والرشوة لا تطلق طاقة داخلية أبداً ، وهى إذا حفزت تحفز إلى طمع من يأخذ وحسد من لا يأخذ ، ونتيجة الإحساسين مزيد من الفشل فى الإنتاج والتحاقد بين الأفراد .

وما هو مفقود فى نظام مادى ليس المادة ولا المكافأة . . ولكن تلك الشرارة الداخلية من الحماس والنشوة التى يطلقها الإيمان والعمل فى حرية ، والفكر بلا قيد ، والحياة بلا تهديد فى كفالة قوانين لا تميز بين حاكم ومحكوم ، وإنما تحمى الكل حماية النواميس الفلكية .

وقد وقع الفكر المادى فى تناقض أساسى بين كونه فكراً يدعو إلى التضحية والبذل من أجل الآخرين وبين كونه فكراً محروماً من الحافز الدينى والمبدأ الروحى . . والدين كما هو معلوم يمد الإنسان بأعظم طاقة ليضحى ويبذل بلا حدود وعن طيب خاطر . . وهكذا أصبح المفكر المادى يطالب بالولاء بالفعل ، ثم يجعله مستحيلاً بالفكر والنظرية .

وخطأ الفكر المادى أنه تصور أن ثلاث وجبات دسمة ومصروف يد وكساء ودواء يمكن أن تكون عزاء كافياً لإنسان يعلم أنه ولد ويموت . . إنسان كتب عليه أن يتألم وحده ، ويمرض وحده ، ويشيخ وحده ، ويموت وحده . . وأن الولاء يمكن أن يشتري بالمرتب والمكافأة إن لم يشتر بالخوف من قطع العيش ، وهذا وهم كبير .

وإنها لكلمة قديمة جداً . . « أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » وإنما إذا كنا نولد لنموت يجب على الأقل أن يسمح لنا أن نقول كلمتنا فى حرية قبل أن نموت .

ولا شك أن كارل ماركس قد أقام نظريته من قديم على ظروف القرن التاسع عشر الصناعية المتخلفة ، حيث العامل هو عامل يدوى كادح مطحون

مسحوق لا يكاد يجد لقمته . . ولم يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا في القرن العشرين ، حيث العامل هورجل مرفه يجلس أمام أزرار ، وحيث المصانع تدور آلياً بعقول الكترونية ، وحيث لا يوجد جيش من العمال المرهقين ، وإنما جيش آخر من الموظفين المرفهين ، ومن ورائهم نقابات عمالية ، وقوانين للتأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرص للتعليم والعلاج . . لم يتصور مرونة الرأسمالية وقدرتها على التطور نحو عمالة جديدة تشارك بحفظ وحصل من الأسهم في رأس المال ، كما حدث في بعض فروع الصناعة اليابانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية .

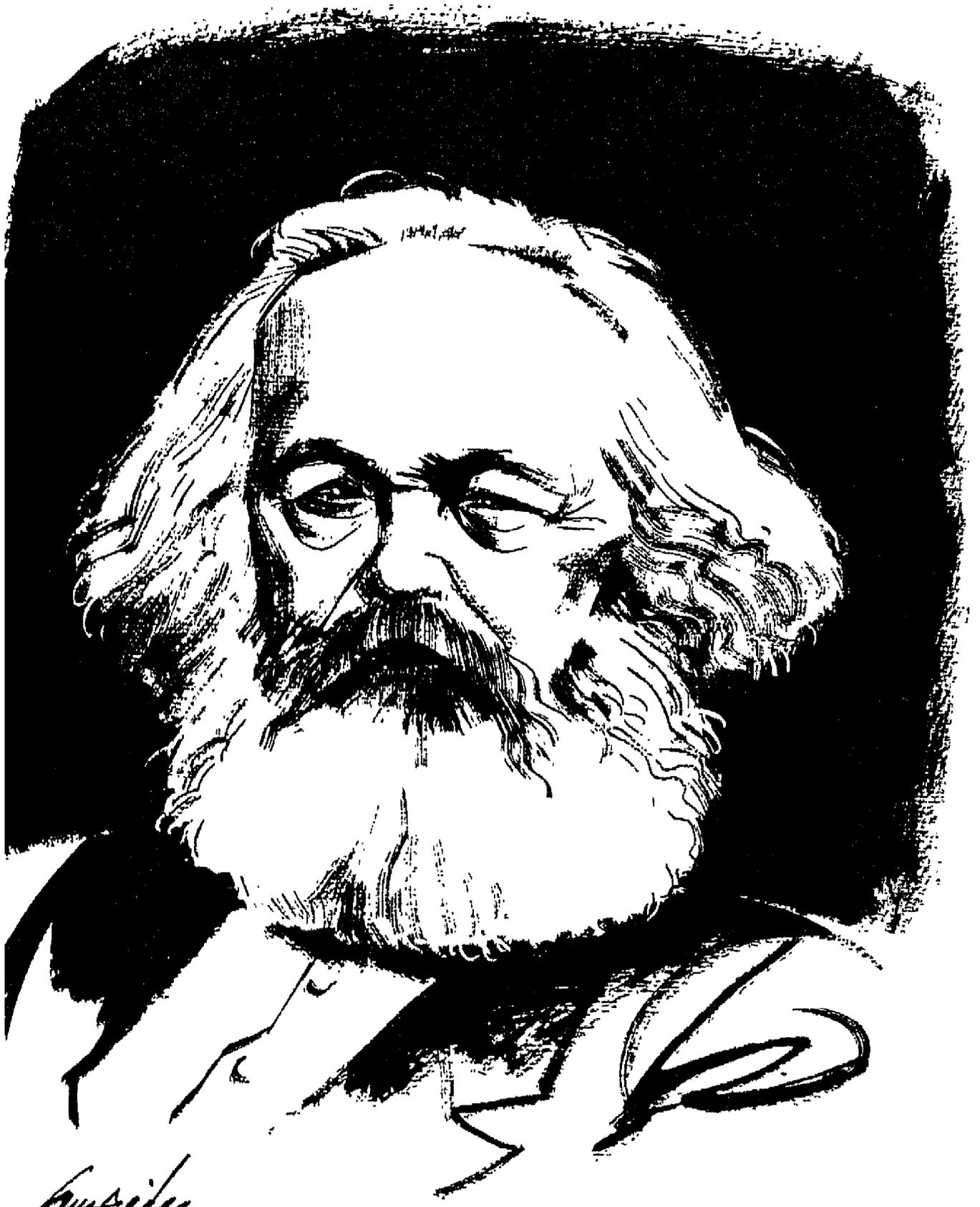
والنتيجة هي انفصال الفكر الماركسي عن واقع القرن الذي نعيشه ورجعيته قياساً إلى ظروف عصرنا .

وأخطأت تنبؤات ماركس جميعها التي بناها على منهجه الجدلي .

تنبأ بأن الثورة الشيوعية لن تخرج من مجتمع متخلف ، وإنما من مجتمع صناعي رأسمالي متقدم مثل إنجلترا وألمانيا ، فكذبت نبوءته وخرجت الشيوعية من مجتمع زراعي متخلف مثل الصين .

وتنبأ باتساع شقة الخلاف بين البورجوازية والبروليتاريا في الدول الرأسمالية بشكل مضطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالي كله . . ولكن ما حدث في المجتمعات الرأسمالية كان العكس ، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات ، عقب سلسلة من الإجراءات الإصلاحية والأنشطة النقابية في حين انطلق الصراع وتفاقم بين دول العالم الاشتراكي نفسه .

وتنبأ ماركس بازدياد تركز رؤوس الأموال في احتكارات هائلة يزداد معها غنى الأغنياء وفقر الفقراء ، ولكن الذي حدث كان اتجاهاً إلى تفتيت رؤوس الأموال عن طريق الشركات المساهمة ، وتفتيت الملكيات الزراعية من تلقاء نفسها بالميراث .



Marx

کارل مارکس

وتنبأ ماركس بالأزمة الاقتصادية الماحقة التي تسحق النظام الرأسمالي بسبب ازدياد إجمالي الإنتاج عن معدل الطلب والقدرة الشرائية نتيجة فقر العمال المدقع ، ولكن الملاحظ إلى الآن أن كل أزمات الرأسمالية ذات طابع عرضي ، وبناء على نظرية ماركس في فائض القيمة يتحدد أجر العامل في الدولة الرأسمالية على أساس الحد الأدنى اللازم لمعيشته . . ولكن الواقع كذب هذه التقديرات بفضل التشريعات الجديدة ونشاط النقابات والتعديلات التي أدخلها النظام الرأسمالي على نفسه فارتفع أجر العامل في دول أوربية كثيرة إلى مستوى رخاء ملحوظ .

وربما كانت أكبر أخطاء الماركسية هي إصرارها على أن تكون فكراً شمولياً يجاوب عن كل شيء ، ويبتكر الحل لكل شيء ، ويفتح كل باب ويجاوب عن كل سؤال .

ومن لا يأخذ بهذه الشمولية لا يكون ماركسياً ، بل إن الماركسية تعتبر ألد أعدائها من يجزئها ، ومن يقف منها موقف انتقاء واختيار ، يأخذ شيئاً ويرفض آخر . هذا التعسف كان أضعف ما في الفكر الماركسي .

يقابل ذلك مرونة فكرية ملحوظة في الدول الرأسمالية وقدرة على استيعاب فكر الخصوم والاستفادة منه دون تحجر أو تعصب مذهبي .

وأكثر من دولة رأسمالية أخذت بنظام تأمين صناعة الصلب ، أو تأمين المصارف ، كمحاولة للتغلب على طاغوت المستغلين والمحتكرين .

وفي الجانب الآخر نرى أنه برغم المذهبية المتعصبة لم تطبق الماركسية بشمولها حتى في روسيا نفسها .

وكانت الماركسية بشمولها دائماً محل رفض عند التطبيق حتى في بلادها وبين أهلها .

والسبب هو ضعف أصيل في النظرية الماركسية نفسها . . أسميه التعسف المنهجي .

ويبدو هذا التعسف المنهجي في « المادية التاريخية » التي يدور الجدل فيها على فكرة العامل الاقتصادي الواحد الذي يجعل منه ماركس سبباً تتداعى من ورائه النتائج المختلفة .

ولم تعد هذه الفكرة مقبولة علمياً ، والرأى السائد الآن أنه في ميدان الظواهر الاجتماعية لا يوجد سبب مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر الثانوية ، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة . . فالعامل الجوهري اليوم يمكن أن يصبح عاملاً ثانوياً في الغد .

والعامل الاقتصادي بهذا لا يصلح لأن يكون إلهاً تصدر عنه كل الأشياء . . وإنما هناك العامل القومي والنفسي والعنصري والعقائدي ، يمكن أن تشكل التاريخ بأقوى مما يشكله العامل الاقتصادي . . وبين الصين وروسيا صراع سوف يشكل التاريخ ، ومع ذلك فهو ليس صراعاً طبقياً ولا اقتصادياً ، فالدولتان كلتاهما بقيادة البروليتاريا .

ولم يستدل ماركس على نظريته بالتاريخ كله ، وإنما ببعض مراحل تاريخية انتقاها ، فلا تصبح للقوانين التي استخرجها صفة الإطلاق على التاريخ كله . . ولا تصدق عليها صفة القوانين ، وإنما هي على الأكثر ترجيحات يجوز عليها الخطأ والصواب . . وتفسيره المادي للتاريخ بأن أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج كانت دائماً السبب الذي يشكل البنيان الفوق الاجتماعي بما فيه من فن وفكر ودين - هذا التفسير كان تبسيطاً ساذجاً لعمليات متداخلة وشديدة التعقيد . وأحدث النظريات اليوم تقول بالعوامل المتعددة التي تتبادل التأثير فيما بينها reciprocal causality كل عامل يكون سبباً ونتيجة في الوقت نفسه ، فالفكر والاختراع يمكن في لحظة أن يقلب وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج بأكثر

مما تستطيع تلك العلاقات أن تنتج فكراً . . والدين يغير العلاقات الاجتماعية في حين تعجز تلك العلاقات الاجتماعية أن تصنع ديناً .

وأقوى البراهين على ذلك هي نشأة الإسلام ، فلم يكن الإسلام قط من إفراز النظام الطبقي في قريش ، ولم يكن ديناً رجعياً يحفظ للظالمين المستبدين أموالهم وممتلكاتهم ، ولم يكن مخدراً للفقراء دافعاً لهم على قبول فقرهم . . فقد دعا الإسلام إلى التمتع بالحياة في اعتدال ، ودعا إلى قتال الظالمين والمستغلين .

ولم يأت الإسلام نتيجة انقلاب في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج في قريش . وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن فعل البيئة .

فقد جاء الإسلام من البداية مقراً المساواة في الفرص ، وضمان حد الكفاية للمواطن ، وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والمجتمع ؛ وجاء بمبدأ للملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه . . جاء بكل ذلك في الجزيرة العربية ، في وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقات الإنتاج تدعو إليه ، بحيث يمكن أن نقول إن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادي . . وتحدياً بذلك منطلق الماركسية التاريخي وحساباتها المادية التي تحتم انبثاق كل انقلاب سياسي من انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته .

وقد كان ماركس مبالغاً أشد المبالغة في تلك الهالة الأسطورية التي أضفها على البروليتاريا (الطبقة العاملة) في كلامه عن نقاء البروليتاريا وطهارة البروليتاريا ، وكأنها شعب الله المختار ، أو جنس آخراقادم من المريخ .

وها نحن أولاء نرى أمامنا الآن الطبقة العاملة نفسها تنشق إلى طبقتين متناقضتين نتيجة تفاوت الدخل ، هما العمال المؤهلون والعمال غير المؤهلين تنتج عنها فئة أرستقراطية وفئة شعبية من العمال أنفسهم .

وقد كان من تأثير هذه الشواهد الكثيرة ، والثغرات الواضحة في مجال

النظرية والتطبيق ، أن انصرف عن الماركسية كثير من الأقلام التي كانت تؤيدها ، واتخذت منها موقف النقد والمعارضة ، أمثال أندريه جيد وبرتراند راسل واجنازيو سيلونى وريتشارد رايت (الكاتب الزنجي) وأرثر كوستلر (المجرى) وستيفن سبندر (الإنجليزي) ولويس فيشر (الأمريكي) وريتشارد كروسمان .

وسمعنا عن مفكر اشتراكي مثل هنرى دومان يدعو للعودة إلى الدين كمنبع للاشتركية .

ونحن هنا نقول إننا لسنا يميناً رأسمالياً ولسنا أيضاً يساراً ماركسياً ، ولا يعنى هذا أننا متوسط حسابي بين الشيوعية والرأسمالية . . وإنما نحن في فكرنا السياسي أصحاب عطاء خاص ، وأصحاب اجتهاد ذاتي ، فنحن رفضنا دكتاتورية الطبقة العاملة واستبدلنا بها تحالف قوى الشعب العامل بكل قطاعاته وطبقاته . . ونحن لم ننظر إلى الدين كعقبة ، وإنما - على العكس - نظرنا إليه كقوة دافعة وطاقه بناءة وفكر تقدمي أكثر تقدمية من كل النظريات المتداولة .

ولم يكن ضعفاً في القرآن أنه لم يحدد منهجاً سياسياً ، ولم يرسم دستوراً محدداً ، وإنما كان ذلك أحد أدلة قوته وإعجازه . . فقد أراد الله أن يفتح سبيل الاجتهاد والأخذ بالعلوم واستنباط المناهج والأحكام من الظروف المتغيرة دون تكبير بمنهج سماوي جامد محدد ، واكتفى القرآن في موضوع السياسة والحكم بإصدار توصيات عامة لها صفة الأزلية وعدم التغير عبر العصور . . وقال إن هذه التوصيات يكون بها الحكم مثالياً .

ماذا كانت تلك التوصيات . .

أولاً - حرية الفرد وكرامته وأمنه .

والفرد في الإسلام هو أمة ، بل عالم بأسره ، بل الإنسانية كلها في قيمته . .

تقول الآية :

من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً
ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» (٣٢ - المائدة) إلى هذه الدرجة
تبلغ قيمة الفرد وقيمة كرامته وأمنه . إن جميع الإنجازات الصناعية والتكنولوجية
لا تعدل قتل فرد واحد ظلماً في السجون . . لأنك إذا قتلت هذا الواحد ظلماً
فقد قتلت الإنسانية كلها وهدمت الناموس . ويقول الإنجيل في هذه النفس
الإنسانية إنها « أئمن من ممالك الأرض طراً » .

فشرط الحكم الأمثل أن يحترم حرية الفرد وأمنه وسلامته ، وألا يضحى
به من أجل أى إصلاح مادي مهما بلغ ذلك الإصلاح .

أما الشرط الثاني - فهو العدالة الاجتماعية . والقرآن تناول العدالة الاجتماعية
في أكثر من سورة ، وهو يأمر صراحة بالألا تحتكر الأموال بين أيدي القلة :
« كفى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٧ - الحشر) .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب
أليم » (٣٤ - التوبة) .

والإنفاق يبدأ من ضريبة إجبارية $\frac{1}{4}$ في المائة هي الزكاة ، ثم يتصاعد
اختياراً إلى أن يصل إلى أكثر من ٩٩ في المائة ، فيأمر الصالحين بأن يأخذوا
كفافهم وينفقوا كل ما زاد على حاجتهم .

« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٢١٩ - البقرة) . والعفو هو كل ما زاد
على الحاجة .

وإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها مسئولة .

ويمتاز هذا التشريع بالجمع بين ركن التكليف القانوني وركن التضمير ،
فهو يطلب $\frac{1}{4}$ في المائة من دخلك جبراً ، ويطلب ٩٩ في المائة من ثروتك
اختياراً وتبرعاً . وفي ذلك احترام لفردية الإنسان واختياره . . ومعلوم أن الإنفاق

إذن واقتحام المساكن عنوة .

أما الشرط الثالث - في الحاكم الأمثل - فهو الشورى ، والشورى تكون من الحاكم للصفوة من أهل الرأي . . لا ينفرد بالسلطة ولا يتجبر .

والله يقول للنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

« ما أنت عليهم بجبار » (٤٥ - ق) ، « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٢١ - الغاشية) .

وهو محمد النبي المعصوم صاحب اللياقات الكاملة .

« إنما المؤمنون إخوة » (١٠ - الحجرات) .

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (حديث شريف) .

« لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » (٦٤ - آل عمران) .

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » (٢٣ - الإسراء) .

نهى الإسلام عن عبادة الحاكم وتأليه العظيم .

والحكم في الإسلام للصفوة والنخبة المختارة ، ولا يصح تحكيم الطغاة والدهماء والسوقة في مقاليد السياسة والفكر . . لأن :

« أكثر الناس لا يعلمون » (٢١ - يوسف) .

« بل أكثرهم لا يعقلون » (٦٣ - العنكبوت) .

« أكثر الناس لا يؤمنون » (٥٩ - غافر) .

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (١٠٣ - يوسف) .

« إن يتبعون إلا الظن » (٦٦ - يونس) .

« وإن هم إلا يخرصون (يكذبون) » (٦٦ - يونس) .

« إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل » (٤٤ - الفرقان) .

نهى الإسلام عن الغوغائية والديماغوجية ، وأوصى بتسليم مقاليد الأمور للصفوة المنتخبة لأن الكثرة دائماً على ضلال . فالعوام ينتخبون حكاهم ولكن لا يحكمون . . لأن الدهماء إذا حكموا حكمت الشهوات والأهواء .

كما نهى الإسلام عن العنصرية ، ونهى عن احترام الناس على مقتضى غناهم وطبقاتهم .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٣ - الحجرات) .

« لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » (حديث شريف) .

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة » (١٨٩ - الأعراف) .

وهذه الوصايا تمثل الذروة فى الحكم والسياسة والتعامل . وهى تقدم الخصائص الأزلية للحكم الأمثل التى لا تتغير بتغير الظروف والأحوال .

ولهذا كله نعتبر أن ديننا طاقة وقوة دافعة للتقدم . . وأنه سبق كل ما وضع من نظريات فى السياسة . .

والدين الإسلامى هو التركيب الجدلى الجامع بين النقيضين : المادية اليهودية والروحانية المسيحية ، فى وسط معتدل يقيم الضوابط على الغرائز والشهوات دون أن يطالبك بقتلها ويبيح المتع دون إسراف .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » (١٤٣ - البقرة) .

ولهذا كان دين التوحيد بحق . . التوحيد بين الروح والجسد ، والتوحيد بين جميع الرسل فى رسالة واحدة . . والتوحيد لجميع القوى الغيبية فى إله واحد .

ولهذا نحرص عليه ونستلهم آياته ، ونعتبره ركناً أساسياً في دولة العلم والإيمان ، ونرى فيه نبع علم لا ينفد ، ومصدر هدى وبصيرة وحكمة ، وشرطاً في بناء الإنسان السويّ المكتمل .

وهذا يجعل من موقفنا السياسي موقفاً إبداعياً انتقائياً . . نبنى عشنا السياسي كما تبنى الطيور أعشاشها ، فننتقي ما يلائمنا ، ونأخذ من كل شجرة ما يصلح لنا من فروع وأغصان .

وليس هذا هو الترقيع الفكري . . فإن ما نفعله هو عملية هضم وتمثيل لهذه العناصر المنتقاة تماماً ، كما تفعل المعدة حينما تهضم طعاماً من عدة عناصر من عدة أشجار ، ثم تسلمه للكبد يمثله ويقدمه للجسد غذاء ومواد بناءية من نوع الجسد نفسه ، لنخرج في النهاية بإبداع فكر سياسي جديد يجمع بين تراثنا العظيم وبين صفوة العلوم الموجودة . . فكريجمع بين الأصالة والمعاصرة .

لا يمين ولا يسار . . وإنما صراط الاعتدال الذي نسميه الصراط المستقيم . . من خرج عنه باليمين فقد انحرف ، ومن خرج عنه باليسار فقد انحرف . . فليس على يمين الحق ولا على يساره إلا الباطل .

والصراط المستقيم ليس هو الوسط الحسابي بين اليمين واليسار ، وإنما هو الوسط الجدلي ، هو التركيب الجامع الذي يوفق بين النقيضين ثم يتجاوزهما في وحدة غنية خصبة جامعة .

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » (٢٩ - الإسراء) .

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » (٦٧ - الفرقان) .

فالصراط المستقيم هو إذن تركيب بين نقيضين ، بين البخل والإسراف يكون صراط الاعتدال هو الكرم ، وبين الجبن والتهور هو الشجاعة ، وبين

اليمن (طغيان مصلحة الفرد) وبين اليسار (طغيان مصلحة الجماعة) يكون المنهج الإسلامى هو التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، دون أن تطغى واحدة على الأخرى ، فلا رأسمالية ولا شيوعية وإنما نظام إبداعى ، يأخذ من الفرد دون أن يطحنه ، ويعطى المجتمع دون أن يجعل منه سلطة تذويب للأفراد ، فهو تركيب جدلى بين النقيضين يجمع بين حسنات النظامين ، ثم يضيف إليهما نعمة الإشباع الروحى .

ونجد فى الإسلام التركيب الجدلى الذى جمع بين عدل اليهودية الصارم : (العين بالعين والسن بالسن) وبين تسامح المسيحية المفرط : (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) ، فنجد الإسلام يعطيك حق رد العدوان بمثله ، ولكنه فى الوقت نفسه يفضل العفو والصبر (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، فهو يجمع بين عدل اليهودية ومحبة المسيحية فى وشيخة الرحمة . . وهذا هو النظام الإبداعى الذى نسميه الصراط الذى يرفض اليمن كما يرفض اليسار معاً ، ويقيم تركيباً سلوكياً فذاً . . هو صراط الله الحق .

المادة والروح



لمن تكون الكلمة العليا ؟ !

أتكون للمادة والظروف المادية والواقع الكثيف حولنا .

أم للفكر والعقل والإرادة الإنسانية والكيان اللطيف بداخلنا الذى نسميه الروح .

فيما يبدو للنظرة السطحية أن البيئة المادية والظروف الاجتماعية والوراثية والحالة المالية من فقر وغنى وجوع وشبع هى التى لها السيادة وهى التى تقود وهى التى توجه السلوك وتصنع الوجدان وتحفز المشاعر وتوقظ العقل من رقاده .
ضغط البيئة .

ضغط الحاجة .

ضغط الفقر والحرمان .

هى دائماً الحوافز الأولى التى يصحو عليها الشعور . . وفى حالة استسلام الإرادة وسلبية العقل . . تكون لها السيادة . . ومن هنا يأتى الحكم المتسرع القائل بأن المادة هى التى لها اليد العليا على الفكر وأنها هى الأقوى فى ميزان التأثير وأنها هى التى تصنع للإنسان عقله . . وأن هذا قانون يصدق فى الأفراد

ويصدق على الأمم ويصدق على التاريخ كله بطول الزمان .

وهو كلام صحيح في حالة واحدة . . هي حالة اختيار الفرد أو الجماعة لطريق الاستسلام والسلبية والخضوع لغرائز البطن والمصالح العاجلة فتتحول بذلك الكتلة الإنسانية إلى عجينة طيبة تشكلها الظروف المادية .

ولأن المسلك السلبي هو المسلك الشائع والمسلك الغالب للأكثرية لأنه لا يكلف طاقة أو مجازفة . . كثرت النماذج التي يمكن أن نأخذها من حياة الأمم في التاريخ . . التي تؤيد وجهة النظر القائلة بسيطرة المادة فأكثر الناس عبيد لشهواتهم ومصالحهم .

لكن الكثرة لا تعنى أبداً الإطلاق ولا تعنى أبداً الحتمية التاريخية .

وهنا الخيط الرفيع بين الحق والباطل .

فالقائلون بالحتمية المادية لحركة التاريخ لم يأخذوا التاريخ كله كنموذج ليستنبطوا منه قانون حركته وإنما اختاروا بضع مراحل وفقرات هي التي وجدوا فيها مصداق كلامهم وأغفلوا الباقي . . وما كان لأحد أن يحيط بالتاريخ كله ولو أراد ، وما وصلنا من التاريخ أكثره كذب واختلاق ومبالغات والمفقود منه أكثر من الموجود . . وكمثل قريب نجد أن تاريخ أسرة محمد علي قرأناه على أيام الملك فاروق بصورة ثم قرأناه بعد ثورة ٢٣ يوليو بصورة أخرى . . والحادث يحدث تحت شبك الواحد منا فيرويه الشهود بروايات مختلفة مع أنهم جميعاً شهود عيان ومع أن الحادث حدث بالأمس ومنذ ساعات فما بال تاريخ حدث على بعد خمسة آلاف سنة وتضارب فيه المفسرون والرواة .

إن المادة التاريخية مادة خادعة وهي بطبيعتها متعددة المصادر ومتناقضة ومتضاربة ولا يمكن استيفائها كلها ولا جمعها كلها بيقين كاف يدعو فيلسوف التاريخ إلى القول بحتمية نظرياته أو بأنه استنبط منها قانوناً مطلقاً . . والقول بهذا الكلام هو السداجة بعينها .

ولكن النظرة الموضوعية العلمية والأمانة لا تقول بأكثر من الترجيح والاحتمال في أمثال هذه المسائل . . فالقوانين الإحصائية كلها قوانين احتمالية وكلها ترجيحات لا يرتفع أحدها إلى مرتبة الحتمية أو الإطلاق . ومن هنا تكون كلمة « الحتمية التاريخية » أو « حتمية الصراع الطبقي » كلمات غير علمية .

ثم إن الإنسانيات لا تجوز فيها الحتمية . . لأن الناس ليسوا كرات بلياردو تتحرك بحتمية قوانين فيزيائية . . ولكنها مجموعة إرادات حرة تدخل في علاقات معقدة يستحيل فيها التنبؤ بناء على قوانين مادية وأصدق مثل على كذب دعوى الحتمية الطبقيّة ما رأيناه في حالات متكررة .

فقد رأينا الإقطاعى ابن الإقطاعى تولستوى يتصرف بعقلية بروليتارية فيوزع أرضه على الفلاحين . . أين ذهبت الحتمية هنا . . ولماذا لم يتصرف بمقتضى طبقته وبالمثل الفوضوى كروبتكين .

بل وكارل ماركس نفسه ابن الطبقة البورجوازية الذى ثار على البورجوازية . نحن هنا نفاجاً بالعقل وقد رفض أن يأخذ شكل ظروفه وبيئته . . بل ثار عليها ونهض لتغييرها .

وفى الجانب الآخر نعثر على أمثلة كثيرة للفلاح والعامل الذى يتصرف بعقلية مضادة لمصالح طبقته . . مثل الفلاح الذى يهمل تنقية الدودة فى مزرعته التعاونية . . والعامل الذى يهمل صيانة الأتوبيس فى قطاع عام .

والوعى وعدم الوعى هنا لا يصلحان كتفسير . . بل هما على العكس يردان المشكلة كلها إلى أصولها الأولى ويقلبان النظرية المادية إلى ضدها . . فالعقل لا تغلبه الظروف المادية إلا فى حالة استسلامه وسلبيته وخضوعه الاختيارى وعدم وعيه . . أما إذا وعى وفهم وأدرك واتخذ موقفاً إيجابياً من الظروف المادية فإنه يعلو عليها ويغيرها . . وهذا يقرب هرم الفكر المادى على رأسه . . فالإرادة البشرية مؤهلة بفطرتها للسيادة على المادة وقيادتها وتغييرها والتحكم فيها وليس

العكس . . وإنما تنازل الإنسان عن حقه الطبيعي في الاختيار وإيثاره للسلبية والأمان وعدم المجازفة والجبن هو الذى يؤدى به إلى هذه الحتمية المادية الخادعة الكاذبة التى استمد منها المفكرون الماديون نظرياتهم .

العقل أمير على الجسد إذا لجأت إليه واستنهضته وسلمته الزمام .

أما إذا أهملته وأغفلته ولم تسمع لمشورته فأنت بهيمة وجسدك هو الذى يقودك . . وغرائذك هى التى تحكمك . . ولكن هل يعنى هذا أن الغرائز لها سيادة حتمية على السلوك . . أبداً . . غير صحيح . . هذا أمر لا يصدق إلا عند البهائم وعند نظرية بدائية مثل نظرية فرويد انتهى أمرها .

وليست مصادفة أن فرويد القائل ببيمية الإنسان وماركس القائل ببيمية التاريخ كلاهما من أصل يهودى . . وكلاهما أوقعانا في تبسيط ساذج أحدهما لخص الإنسان في حافز جنسى والآخر لخص التاريخ في عامل اقتصادى . . وهذا التبسيط المخل لحقائق هى بطبيعتها شديدة التعقيد والتداخل . أضل الفكر ولم يهده .

وإذا كان لا بد من قانون عام يهذى الفكر في هذه المتاهات فليس أمامنا إلا القانون الأزلى (الدين) الذى أثبت صدقه المطلق في تفسير الإنسان كفرد وأمة وتاريخ ، والذى فهم الإنسان جسداً وحرية وعاطفة وعقلاً .

والوجود في هذا القانون الأزلى سلم تصاعدى من المراتب يبدأ من المادة في أشد حالاتها هبوطاً وكثافة - وهى الأرض . . الطين . . ثم الوجود النباتى ثم الوجود الحيوانى ثم الوجود الإنسانى . . وهكذا من الأكثف إلى الألف . ونرى أن اللطائف تحكم الكثائف وتتصرف فيها . . فالنبات له سلطة فسيولوجية على الأرض يتصرف فيها ويبدل ويغير في مكوناتها لصالحه . . ثم الحيوان يأكل النبات ويتصرف فيه بالتبديل والتغيير لصالح جسده الحيوانى . . والإنسان وهو ألف اللطائف الموجودات الحية وأقلها غلظة هو الحاكم الأعلى على مملكة الحيوان

فهو يروض الوحش ويركب الحصان ويقود الفيل وهو يذبح ما شاء من الحيوان ويأكله ويحول لحمه إلى طاقة يستفيد بها . . ثم إذا جئنا للإنسان نفسه نجد أنه يتكون من جسد هو أكثر لطفاً فيمكن أن تشتعل الشهوة في رجل اللف والغريزة تحكمها عاطفة أكثر لطفاً فيمكن أن تشتعل الشهوة في رجل ثم تطفئها رائحة كريهة أو حالة نفور أو كراهية واشمئزاز . . ثم نجد أن العاطفة بدورها يحكمها العقل وهو الوجود الأكثر لطفاً . والعقل عند أهل البصائر تحكمه البصيرة وتقوده - وهكذا نجد أن اللطائف تحكم الكنائف في هذا السلم التصاعدي الذي أدناه المادة العمياء وأعلاه الروح . فالروح لها سبق الأمر ومطلق الحكم على المادة وليس العكس . . وإذا كنا نرى ما يخالف هذه الشواهد في إنسان غافل سلبي اختار حياة البهيمة وركن إليها فمثل هذا الإنسان الذي تحكمه معدته لا يصلح قانوناً لحركة التاريخ المثلثي حتى ولو كان هذا النموذج الإنساني هو الأغلبية . . فأغلبية العميان ولو كانوا عدة ملايين يمكن أن يقودهم بصير واحد ولا تجدى تلك الأغلبية في غلبة هذا البصير الواحد ولا تعدله .

فنحن أمام سلم تفاضلي متعدد الدرجات والمراتب يكشف عن ذاته في كل سلوك مادي ونباتي وحيواني وإنساني واجتماعي .

ولا يصح أن نفهم كلمة « روح » فهما اصطلاحياً مفرغاً من المعنى . . وإنما كلمة روح عندنا لا تفهم إلا على معنى « الإصرار والإرادة والافتناع بالحق والموت في سبيله » . فالمسلم بالاسم الذي يتعاطى الحشيش ويعيش لمعدته ولذته الحسية لا تتحرك فيه نخوة لوطن أو حماسة لحق أو نجدة لمظلوم لا يحق له أن يدعى أنه من أهل الروح أو أن عنده ذرة من هذه الروح النبيلة التي نتكلم عنها - وهو ليس مسلماً على الإطلاق وإنما هو حيوان ينتسب إلى حضيض الحتميات المادية وأن وضع على رأسه يافطة الدين . بينما المناضل الفيتنامي الذي يموت في سبيل قضية عدل وحق وشرف . هذا المناضل الهزيل الضليل الفقير المريض بفقر الدم الذي يهزم العملاق المادي الأمريكي . هو

عندنا مثل للروح التي تهزم المادة وتخضعها .

والمتصوف المسلم يفهم القضية فهماً رجباً عميقاً فيقول لك : ما من الله بد .
 أنت ساجد لله دون أن تدري طوعاً أو كرهاً . لو عشقت الجمال فأنت ساجد لله .
 فالله هو الجمال . ولو أحببت الحق فهو الحق . ولو أحببت العدل فهو العدل .
 فكل هذه أسماءه . والعالم كله تجلياته . فأينما توجهت فثم وجه الله . وكل فضيلة
 المتدين أنه يعبد الله اختياراً عن وعى وإدراك ومعرفة لا عن عمى . . ولكن كل
 عباد الحق هم عباد الله شاءوا أم رفضوا .

فالمناضل الفيتنامي يعبد الله تحت راية خطأ . . والهرم في رأسه مقلوب .
 والمسلم الجبان السلبي الكسول كافر وإن رفع راية الإيمان الصحيحة . . والهرم
 في سلوكه مقلوب .

وقديماً قال سقراط « اعرف نفسك » .

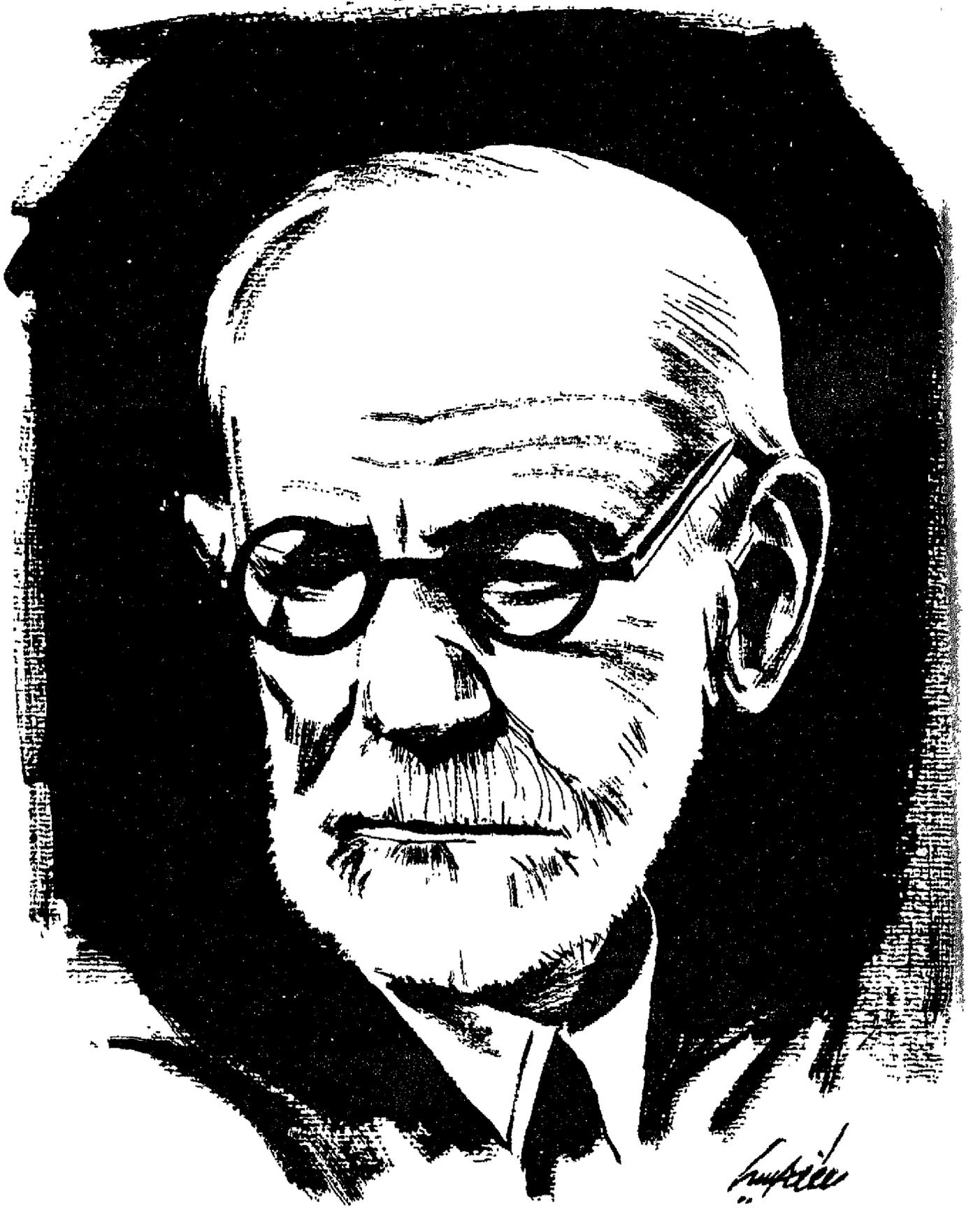
واعتبر سقراط هذا الهدف هو غاية ما يحلم به فيلسوف لأنه أدرك أنه هدف
 صعب وبعيد . . ولا يصل إليه إلا فيلسوف ملهم .

وما أكثر الذين يطلقون الرصاص ويموتون دون أن يعرف الواحد منهم
 حقيقة هدفه . وحقيقة انتمائه .

وما أكثر من حاربوا للغنيمة وللهدف المادى من المسلمين الأوائل ممن
 تصوروا أنهم حاربوا وماتوا للحق ولوجه الله . . وما أكثر من يحاربون ويموتون
 لوجه الحق اليوم ممن يتصورون أنهم يحاربون تحت راية فكر مادى ملحد .

والتباس الأهداف والوسائل هو القاعدة وليس الاستثناء .

ولكن القاعدة الوحيدة التي ليس لها استثناء . . هي أن الروح لها السبق
 في الوجود والحاكمة على كل صنوف المادة . . وأن الهرم مقلوب عند ماركس
 وليس معتدلاً كما يتصور نقاد الفكر المادى .



فرويد

وإذا كانت المادية الجدلية تقول بسبق المادة على العقل وأنه في البدء كانت المادة ثم تطورت بالقوانين الجدلية الباطنة فيها إلى حياة نباتية ثم حياة حيوانية ثم حياة إنسانية ثم انبثق من الحياة الإنسانية العقل ومن العقل الفن والعلم والدين . . إذا كانت تقول إن الوجود جاء على هذا الترتيب بدءاً بالمادة وانتهاءً بالعقل . . فإن لنا أن نسأل سؤالاً مشروعاً .

ومن جاء بالمادة .

إن المادة بجميع أشكالها الهندسية وبجميع ذراتها المحكمة الصنع تدل وتشير وتؤكد على أنها جاءت بتصميم عقل سابق وأنه لا بد لها من مهندس ومصمم ومخترع هو عقل كلي سابق على النشأة والخلق .

ثم من وضع القوانين الجدلية في المادة . . أليس كل قانون محتاجاً إلى مقنن .

وإذا أسقطنا السببية ألا يسقط العلم كله .

والرد التقليدي الذي يقوله الماديون بأن هذا الكلام يلتقي بنا إلى غيبيات . . نجواب عليه نحن أيضاً بجواب مشروع . . فنقول : وهل كلام الماديين عن بدء الوجود إلا الغيبيات بعينها . . ومن كان موجوداً من هؤلاء الفلاسفة عند بدء الخليقة ليقول بيقين المشاهد - أنه في البدء كانت المادة . . لا أحد . . أن الحكاية كلها رجم بالغيب من أناس يتهموننا نحن بالغيب .

ثم ماذا تعنى المادية الجدلية بكلمة « مادة » ؟

الكلمة ذاتها تجريد . فهم لا يعنون بها النحاس أو الحديد . . وإنما هم يعنون كل ما هو موضوعي خارج عن الحواس وعن الذات المشاهدة .

ومعنى ذلك أن المادة قديمة وأن الذات محدثة طارئة وهو تخمين وتخليط مناقض لشعورنا في الواقع . . فنحن نشعر أن إحساسنا بذواتنا إحساس شاخص مائل في الوجدان على الدوام وأن ذاتنا في حالة حضور ثابت وديمومة وأنها آن

واحد مستمر . . بينما نشعر بالعالم المادى حولنا كنبض زمنى زائل من المتغيرات . .
ومعنى ذلك أن ذاتنا هى الأصل وهى الجوهر القديم وأن جسمنا وعالمنا المادى
هو الأمر المحدث الطارئ .

ثم إن هذه النظرة الماركسية إلى المادة هى تجريد بحثت من أناس يعلنون
فى كل مناسبة أنهم ضد التجريد .

ومن هنا نرى أن كثيراً من الإكليسيات التى زينوها لنا على أنها علم ليست
من العلم فى شىء أمثال :

العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأى عقل كلى .
ستالين « المادة الجدلية »

الفكر لم يخلق المادة وإنما المادة هى التى أنتجت الفكر .
انجلز (فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية)

العالم أشبه بلوحة بيانية تشرح لنا كيف تتحرك المادة وكيف تفكر المادة .
« لينين »

عقل الإنسان ليس هو الذى يخلق له طراز معيشته وإنما طراز المعيشة هو
الذى يخلق للإنسان عقله وفكره .

كارل ماركس (مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى)

الدستور والأخلاق والدين خدعة بورجوازية تتستر من ورائها البورجوازية
من أجل مطامعها .

« المانفستو الشيوعى »

إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين
والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالاً .

« لينين »

كل هذه العبارات فى التحليل النهائى عبارات غير علمية فقد وجدنا أن العقل والإرادة هى التى تشكل الظروف الحياتية المادية وليس العكس إلا إذا اختار الإنسان أن يعيش سلبياً كالبهيمة لا يوظف إرادته فى شىء .

وقد وجدنا أن الكلام عن سبق المادة على الفكر هو نوع من الرجم بالغيب يقوله ناس يدعون أنهم ضد الغيب .

ومثله الكلام عن حركة الكون بالقوانين الباطنة وبدون عقل كلى مهيمن وبدون إله . . هو لون آخر . من الظن والتخمين دون إثبات علمى ودون يقين علمى . والذى يقول إن العلم لا يستطيع أن يثبت وجود الله . . نقول له : ولا يستطيع أن ينفيه .

وإذا كان المفكر العلمى موضوعياً فسوف يرجح وجود الله وإن لم يؤكد أنه لا نظام بلا منظم ولا يمكن للحروف أن تصطف فى قصيدة من تلقاء نفسها بدون عقل كلى يصفها . . وسوف يدلله قلبه بعد ذلك على باقى الحقيقة ويؤكد له اليقين . . فالعقل وحده ليس دليلنا على الله وإنما العقل والقلب معاً .

وبالمثل إطلاق القول على الدين بأنه أفيون وبأنه ذريعة استغلال هو خلط بين الدين وبين أدعياء الدين . بين الكنيسة وبين الذين يدجلون باسم الكنيسة . . وهو كلام من قبيل التهيج والتحريض وليس كلاماً علمياً بالمرّة .

وحيثما تحاول المادية الجدلية أن تقنعنا بحكاية الكم الذى يتحول إلى كيف فإنها تنحدر إلى كلام شديد السداجة عن الماء الذى يتحول إلى بخار (وهو كيفية جديدة للماء) « بمجرد التسخين وتصور لنا التسخين بأنه تغير كمي بحت . مع أن ماهية الحرارة فى ذاتها مجهولة ولا نملك عنها إلا بضعة فروض وما تحدثه الحرارة فى جزيئات الماء لا نعرف عنه إلا مجموعة فروض أخرى . . والقول بأن الحرارة تؤدى إلى تعجيل حركة الجزيئات لا يعنى أن الكم يتحول إلى كيف لأن الحرارة ذاتها هى إحدى كفيات الطاقة . . فنحن أمام كيف يؤدى إلى

كيف . حركة تؤدي إلى حركة (والحرارة هي في تعريفها النهائي حركة) .
وبالمثل الكلام عن تحول الأكسجين إلى أوزون بمجرد إضافة ذرة من
الأكسجين .

وقد تصورت المادية الجدلية أن الفرق بين الأكسجين والأوزون هو مجرد
فرق رقمي كمي وهو خطأ علمي . . وليس مجرد كلام غير علمي .

وأى طالب مبتدئ في قسم الكيمياء يعرف أن الفرق بين الأوزون والأكسجين
ليس مجرد فرق عددي في الذرات ولكن فرق في التوليف والتشكيل والنظم والترتيب
داخل الجزيء (وكلها أمور كيفية) .

ونحن نعلم أن هناك آلاف المواد العضوية التي تتألف من نفس العدد من
ذرات الكربون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين ، ومع ذلك تختلف اختلافاً
هائلاً في كفياتها وخصائصها (دون أى فارق كمي) . . ولجهد أن الذرات في
كل مرة تلتقي بصورة وهيئة وتشكيل مختلف .

ومادة الأظافر والشعر والريش واللحم كلها بروتينات . . والفرقة . بين واحدة
والثانية هو كيف تضرر الجزيئات وعلى أى صورة .

والصورة والهيئة هي أمور كيفية بحتة وهي من الأسرار المخفية وراء آلاف
الأنواع الكيميائية من البروتين .

وعلم الكيمياء العضوية هو علم « هيئة الجزيئات » بالدرجة الأولى ، وفي مثل
آخر لخرافة الكم الذي يتحول إلى كيف تقدم لنا الماركسية حكاية سلك البلاطين
الذي يتوهج (يتطور في كفيته) لمجرد تمرير تيار كهربائي فيه . . وتصور لنا
الكهرباء على أنها مجرد كم . . مع أن الكهرباء هي كيفية أخرى من كفييات
الطاقة وكلنا نعرف أن الضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية كلها كفييات
مختلفة لشيء واحد نسميه الطاقة .

إنها كيفية من كفيات الطاقة تحدث تغييراً كفيّاً في سلك البلاطين .
وما تقوله المادية الجدلية هو خلط ساذج وغير علمي .

وسبب هذا الخلط والتناقض هو إصرار الماركسية على أن تكون شمولية
تجاوب على كل شيء وتفتي في كل مشكلة وتفتح كل باب .
وهو شمول مقصود لهدف هو إفراغ الاتباع تماماً من أى رأى مخالف أو وجهة
نظر منافسة حتى يتم تعبئتهم الكاملة وحتى يتحول كل واحد منهم إلى طلبة
مسدس ليس في ذهنه شيء سوى أن يثب على الحكم ويقلبه .

لم تكن الماركسية أبداً فلسفة متكاملة . . وإنما كانت منشورا للتحريض
وقد كرس كل وسائلها لهذا التحريض فحملت لافتة مكذوبة بادعاء العلم
والعلمية والموضوعية لتعبيء بها المثقفين واستخدمت الأسلوب العاطفي لمخاطبة
العمال والفلاحين تناديهم بأنهم الطليعة والطبقة المختارة لقيادة التاريخ والشرفاء
ورواد المستقبل وأبطال الغد الذين يملكون وحدهم النقاء الثوري ، واعتمدت
على أن حافز المصلحة عند هذه الطبقة الفقيرة مضافاً إليه مدد السخط والحقد
والحسد سوف يزود هذه الكتل البشرية بطاقة الدفع المطلوبة .

أما المثقف فهو واحد من ثلاثة . .

مثقف يعتنق الماركسية بدافع من نزعات مثالية في تحقيق العدالة ناسياً
أن النظرية التي اعتنقها هي أعداء المثالية .

ومثقف يجند نفسه في المعركة بدافع الانتهازية والوصول السريع محاولاً
أن يركب الموجة العالية التي أدرك بذكائه أنها سوف تقلب كل شيء .

ومثقف يقبل متردداً بإغراء اللافتة الجذابة التي تتكلم عن النظرة العلمية
والفكر الموضوعي فيقرأ المنشورات في انبهار ثم لا يكتفي بالمنشورات فيغوص في
المراجع الأصلية ليستكمل رحلته . ومثل هذا المثقف سوف يكشف شيئاً

فشيئاً تهافت الفكر الماركسي وتناقضه ومجافاته للروح العلمية وتعسفه واستخدامه للمكيافليه الفلسفية لهدم الموجود بأي ثمن .

ومثل هذا المثقف هو أول من تدور عليه الدوائر إذا حدث الانقلاب وهو أول من يسجن ويضطهد وتراقب خطواته بتهمة أنه المثقف البورجوازي اللا منتمى الذى يعوق حركة التاريخ ويخون التقدم . إلخ . . إلخ . . وهذا المثقف هو مثل لأزمة الثقافة والمثقفين .

إن الحركة الماركسية التى تأتى على أكتاف المثقفين تتحول لتجعل من المثقفين دائماً وأبداً أول ضحاياها .

هى مجموعة متناقضات وخروق فى ثوب مهلهل اسمه الفكر الماركسي . . يحاول أن يفسر الإنسان والمجتمع والتاريخ والكون والنشأة من وجهة نظر شمولية ثم يعجز عن التفسير ثم يناقض نفسه بنفسه . ثم لا يصل إلى شيء إلا عدة مصطلحات وشعارات مفرغة من المعنى .

ونجاح الفكر الماركسي على خريطة الواقع وانتشاره كاللهب بين ملايين لا يصح أن يؤخذ دليلاً على صدقه العلمى . . فقد نجح الفكر الماركسي كتحريرىض وتحشيد وتعبئة لأنه حرك ثأراً قديماً موجوداً بالفعل . . ثأراً حملة الأحقاد عن الآباء عن الأجداد فى سنين طويلة من الاستعباد وكانوا يطحنونه تحت أضراسهم فى غل مكبوت حتى وجد من ينظمه فى صفوف ثم يوزع عليه السلاح . . نجحت الفكرة كانتقام من مظالم متراكمة وكتنفيس عن أحقاد مكتومة . . ونجحت كتعبئة اقتصادية . . ونجحت كتقدم مادي تكنولوجى . . ولكن . . لم تنجح اليابان فى الخروج من دمار القنبلة الذرية ومن الهزيمة الكاملة إلى ذروة القوة الاقتصادية والقيادة التكنولوجية فى العالم بفضل تنظيم رأسمالى يرى الماركسيون أنفسهم أنه تنظيم خاطئ . .

إن نجاح فكرة لا يعنى دائماً صوابها . . فقد تنتشر الأفكار الخاطئة لمجرد



تروتسکی

Amir

أنها تلتقى ترحيباً من غرائز الناس وأهوائهم (وما أسهل تحريض الجياع على الشبعانين) .

ثم إن لنجاح في جانب لا يعنى النجاح في كل جانب .

وقد تنجح النظرية في بناء مصنع ومع ذلك تفشل في بناء إنسان .

وقد تنجح النظرية لسلامة بند من بنودها ومع ذلك تفشل ككل وكتصور شمولى وفكر فلسفى . وهذا حال الماركسية فهى فاشلة كفكر شمولى وفلسفة ، ولكنها كبنود وعناصر مصدر إلهام وعطاء وفائدة للمفكر الاقتصادى الذى ينظر إليها نظرة انتقائية نقدية ويحاول أن يأخذ منها ما يفيد وي طرح ما يضر .

ومع ذلك فكم كان مكلفا ذلك النجاح للفكر المادى . . فإن شرارة الصراع الطبقي حيثما انطلقت كانت دائما إيذانا بحالة خطيرة من عمى الألوان فلم يعد الصراع محصوراً بين الإقطاعى والفلاح ولا بين الرأسمالى والعامل . وإنما راح ينتشر كما تنتشر النار فى الهشيم فيتحول إلى منطلق يحكم المجتمع كله فإذا بكل من هو أدنى ينظر فى تربص إلى كل من هو أعلى .

وهو بعد أن رأى أباطرة المال وقيصرة الأرض يعرفون عن أملاكهم بكل سهولة ويطردون أصبح يشعر بأن هيبة كل كبير قد سقطت نهائياً فتحول بغريزته إلى من هو فوقه يحاول أن يسحب منه الكرسي ليقفز مكانه .

وما لبثت الأمة أن تحولت إلى ملايين يطعنون بعضهم بعضاً وتمزق المجتمع فى لحظة إلى سكان وأصحاب مساكن . . محررين ورؤساء تحرير . . عساكر وضباط . . موظفين ومديرين . . خدام ومخدومين . . كل مرؤوس ينظر شذراً إلى رئيسه ويتحين الفرصة ليطعنه ويحل محله بحق أو بغير حق ، فإن ما حدث فى القمة قد أعطى المثل للقاعدة .

وما بدا كأنه قانون علمى ما لبث أن تلقفته الغرائز ليتحول إلى حقد . .

مجرد حقد . . ثم ينتشر بلا ضابط ليمتص طاقة الأمة في حرب داخلية صامتة تستنزف الموارد لآخر ملهم في مكائد ورشاوى وسرقات واختلاسات لا آخر لها . . فقد أصبح ما في جيب كل واحد حلالاً للآخر .

يقول تروتسكى :

إن الفرد مهما طاب عيشه يضمم نزوعاً فطرياً إلى الشكوى من ظروفه والطموح إلى ظروف أكثر مواتاة لأحلامه . وبين الشكوى والطموح وضع نفسى فيه الكثير من كوامن الحقد . . والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقي .

هذا كلام تروتسكى وهو اعتراف صريح بالخلفية السوداء للفكر المادى . . ومن هنا اختلفنا مع الفكر المادى . . ورفضنا الصراع الطبقي كأساس للبناء . . واخترنا تحالف قوى الشعب كأساس لفكرنا السياسى واخترنا الدين حافزاً ومنطلقاً ، لأنه نبع محبة وأخوة وتعاون وتراحم ، ولأنه دافع للتضحية والفداء والبذل . . ولا يقوم مجتمع بدون محبة . . ولا تغنى إنجازات مهما عظمت عن المحبة . فالكبارى والجسور والطرق المرصوفة والمصانع والأقمار الصناعية والصواريخ والطائرات والأفران الذرية لا قيمة لها بدون إنسان يديرها للخير والمحبة . . وإلا . . فدمارها محتوم . . والخراب قادم . . مهما ارتقت هذه الأسباب . إذا حكم الوحش وتسلم الحيوان زمام الأمور وجاء جيل من الكذابين الانتهازيين الأفاقين الذين لا تشم أنوفهم إلا رائحة المادة والجنس والدم .

لن يكون أكثر تقدماً من يصل قبل الآخر إلى القمر ، ولكن من يعمر قلبه محبة أكثر ورحمة أكثر .

وقد كان هذا رائدنا فى اختيار منهجنا السياسى ومسيرتنا . وقد تطول بذلك المسيرة ويطول المشوار . . ولكن من قال إن الأسرع هو الذى يصل أولاً .

ألم يقل الحكيم القديم لسائق العربة .

سربطه حتى تصل بسرعة .

زعميم الثورة الشابية



رياح الثورة اتخذت هذه الأيام شكلاً شبايباً طلابياً وأصبح هذا الشكل الطلابي طابعاً مميزاً في العالم كله وأصبحت الصورة المألوفة على الصفحات الأولى من الجرائد وعلى أغلفة المجلات هي طلبة معتمدون في حرم الجامعة أو طلبة مضربون أو طلبة يصومون أو طلبة يتظاهرون أو طلبة يهتفون أو طلبة يقذفون كوكتيل مولوتوف .

واتسع نطاق السخط والرفض والتدمير فأصبح احتجاجاً على كل شيء . . . على الآباء . . . وعلى الحكام . . . وعلى النظام الاجتماعي أيا كان هذا النظام الاجتماعي . . . وعلى الدين . . . وعلى الله تعالى .

وأحياناً على بدايات الواجب والعمل والقيم والنظام والمسئولية .

مجرد رفض غليظ لكل شيء تذرعاً بأى شيء .

وتغيرت صورة السائح الأجنبي العجوز الذي يصحب زوجه العجوز يتوكأ عليها وتتوكأ عليه في نزهة يتفرجان فيها على الدنيا وينفقان ما جمعاها من ألوف الدولارات قبل أن يولى العمر . . . وظهر بدلها أولاد في سن المراهقة أطلقوا اللحى والسوالف في جيب كل واحد بضعة فرنكات وفي ذراعه فتاة حافية مثله يتعاشران

بدون زواج وينا مان على أى رصيف ويشحذان ثمن البيرة ويبصقان على كل شيء .
 واتخذت هذه الثورة شكلاً تضامنياً بين جميع الشباب وانتقلت بالعدوى
 من بلد إلى بلد . . . وكأنا هناك اتفاق مكتوب بين الجميع وعهد وميثاق بأن
 يدمروا كل شيء .

ومن وراء هذه الثورة تاريخ . . . وعقول ماكرة كانت تعمل فى العلن وفى
 الخفاء زمناً طويلاً وأفكار كانت ترصف الطريق وتمهد السبل لهذا التهديم .

فكر سارتر الذى ظل يبيث القلق والغثيان والقيء والعبثية والإحساس بعدم
 الجدوى وبأن الإنسان ولد ليموت وقذف به فى الكون بلا رعاية وبلا عناية وأن
 آلامه نكتة سخيفة بلا معنى .

وفكر فرويد الذى صور من الإنسان حيواناً يلهو بأعضائه التناسلية . .
 ويدور فى فلك غريزته الجنسية . . منذ طفولته وهو يرضع ثدى أمه بلذة جنسية
 إلى شبابه ورجولته وشيخوخته وهو يحلم ويؤلف ويبدع الفنون والفلسفات وكل
 هذا فى نظر فرويد مجرد إفرازات جنسية أخرى من نوع آخر متسام . . وعادة
 سرية من نوع رفيع . . حتى الدين هو اعتذار للأب مما يخفيه العقل الباطن من
 أحقاد عقدة أوديب . . فالابن الذى كان يشتهي أمه ويريد أن يقتل أباه
 يحاول أن يخفى هذا العار بأن يخلق لنفسه أباً سماوياً بديلاً يسجد له فى خشوع
 (وقد نسى فرويد أو تناسى أن الدين كان موجوداً من أيام المشاعية الأولى ومن
 قبل أن يوجد التحريم بين الأم وابنها ومن قبل أن تظهر العقدة الأوديبية على
 الإطلاق) .

وهل يمكن أن يقال إن الطفل يرضع ثدى أمه بلذة جنسية . . وهى لذة
 لا يعرفها إلا بالغ . . ؟

هل هو العلم الذى يتكلم أم التواطؤ العلمى . . أم التعسف . . ثم يأتى
 ماركس ليحرك التاريخ حول غريزته الاقتصادية . فكل شيء يتحرك بحوافز



سازر

مادية . . . ومن تطور علاقات الإنتاج يخرج الفن والفكر والدين . . . وليس وراء المادة سوى المادة . . . وليس وراء الموت إلا الموت . . . وما الله وجنته إلا أفيون الفقراء والبروليتاريا . . . وعلى البروليتاريا أن تكف عن هذا الأفيون . . . وتهب من رقادها لتحطم الطبقة البورجوازية وتتسلم زمام القيادة لتحقيق اللجنة الحقيقية على الأرض . . . المجتمع اللاطبقى .

ومن بعد ماركس يقوم اليهودى الرابع (وليست مصادفة أنهم كلهم يهود) هربرت ماركوز الذى اشتهر بأنه زعيم الشباب ليعلن بأسه من الطبقة العاملة ويتهم البروليتاريا بأنها تواطأت مع الرأسمالية فى بلادها ونامت عن رسالتها التاريخية فى مقابل زيادة نصيبها من الأرباح . . . وأنها بهذا دخلت شريكاً فى اللعبة وأصبحت منتفعة بالنظام الرأسمالى وبذلك رأت مصلحتها فى الإبقاء عليه .

وهو يتهم الاشتراكية بأنها استبدلت الطاغية القديم الذى كان اسمه رأس المال . . . بطاغية جديد اسمه . . . التخطيط . . . والخطة .

وفى نظر هربرت ماركوز تحولت هذه الخطة إلى شبح وقوة لا معقولة يخضع لها مائتا مليون مواطن خضوعاً أعمى . . . الكل تحولوا إلى عبيد « أرقام ومعادلات » يفرزها العقل الإلكترونى اسمها الخطة بمثل ما يحدث فى النظام الرأسمالى من خضوع الملايين لقوة لا معقولة اسمها . . . السوق والبورصة ورأس المال .

والنتيجة فى النظامين ظهور مخلوقات إنسانية مسطحة ذات بعد واحد تنفذ ما تمليه عليها ظروف وتقديرات مادية . . . وقد انسحق فيها البعد الداخلى البعد الروحى فى الحالين . . . العمق النفسى والخصوصية والوجدان الذى يثور ويرفض ويعترض . وهو يتهم الاشتراكية بأنها تسير فى نفس طريق الرأسمالية الأمريكية لخدمة هدف واحد هو وفرة البضائع الاستهلاكية ولتأكيد الصنم الجديد الذى أصبح معبود هذا العصر المادى وهو الفريجيدير والترانزيستور والجوارب النيلون . . . إلخ . إلى آخر قائمة الفاترينة الاستهلاكية البراقة . . . وأمام هذه

الفاترينة يسيل لعاب المواطن وتتقلص رغباته فلا يعود يفكر إلا في محاولة اقتناء هذه الأشياء . . ويتحول إلى حيوان ذى بعد واحد هو أن يكدح ويكدح ويكدح ليشتري هذا وذاك . . وبذلك يقع في الفخ وينسحق ويصبح واحداً من الثيران العمياء المربوطة في الساقية . . وهو لا يجد حلاً للفكاك من هذا الاستعباد سوى إعلان الرفض والثورة .

وليس عند هربرت ماركيوز حل بديل ولا نظام بديل وإنما هو يكتفى بالتحريض على الثورة والرفض والهدم .

وهو يائس من تحريك طبقة العمال فهى في نظره تحولت إلى طبقة متأمرة منتفعة .

وهو يضع أمله في فئات جديدة هى الطلبة والزنوج والنساء والمنبوذون في كل مكان .

ولهذا اشتهر بأنه فيلسوف الثورة الطلابية .

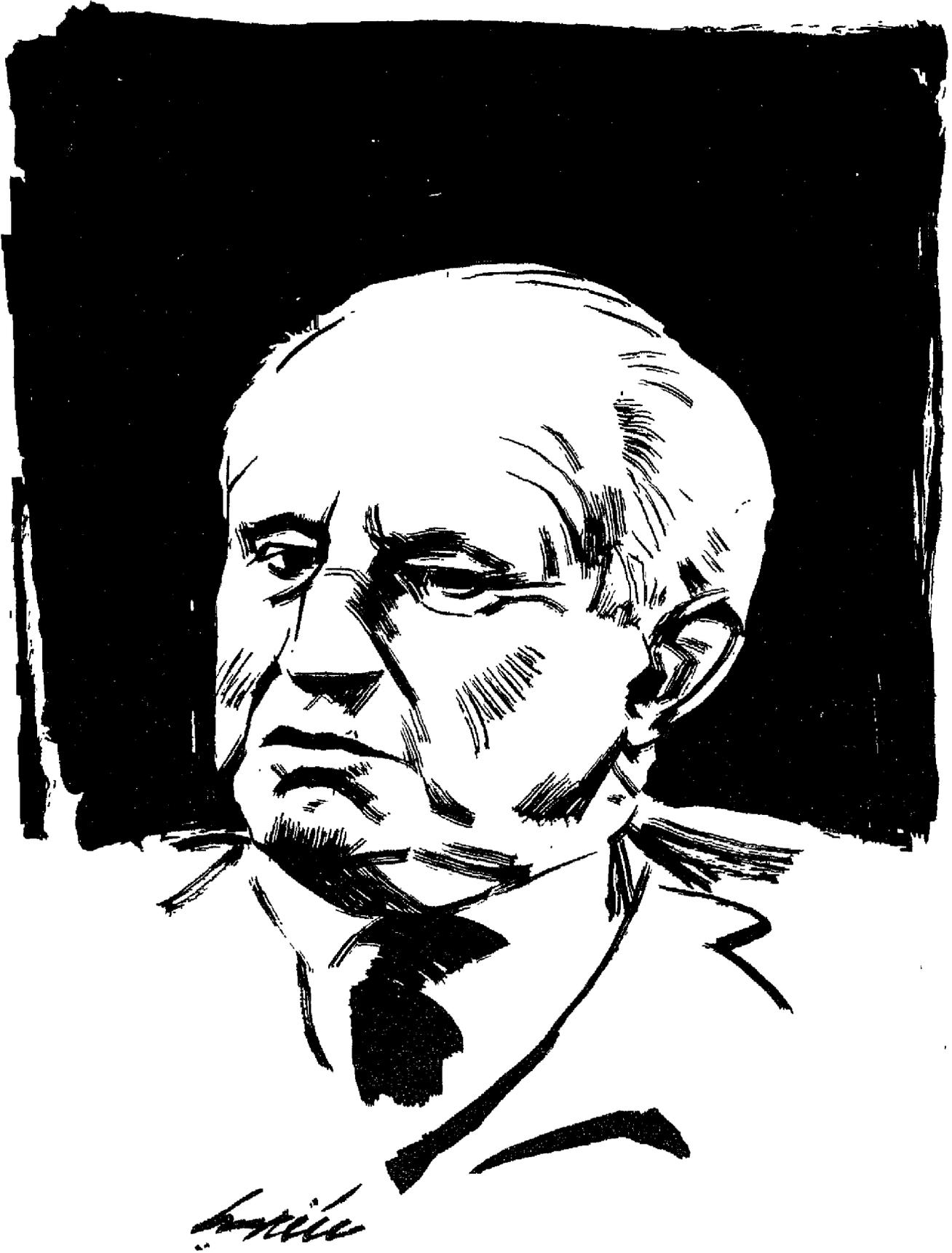
واشتهرت كتبه بأنها وراء كل إضراب واعتصام طلابي .

ولكن أى مستقبل يبشر به ماركوز . . ؟ !

وماذا بعد تحطيم الأغلال التى تصورها فى رقاب المواطنين فى معسكر الشرق ومعسكر الغرب .

إنه يحلم بمجتمع بلا محظورات . . مجتمع يباح فيه الجنس والاستمتاع الجنىسى والعاطفى والجمالى بلا موانع من دين أو خلق أو تقاليد .

ويتصور ماركوز أن هذا هو التقدم . . وأن هذا الانطلاق هو الحرية المنشودة . . وينسى أنه خروج من قيد إلى قيد أسوأ . . خروج من قيود الحزب السياسى والخطة والتنظيم وانطلاق من أغلال رأس المال للوقوع فى سخرة الغرائز واستبداد الرغبات البهيمية .



هربرت ماركوز
(اليهودى الرابع)

والإنسان إنسان طالما استطاع أن يقاوم ما يحب ويتحمل ما يكره فإذا تحول إلى لعبة في يد غرائزه ونزواته فهو والبهيمة سواء بسواء والإشباع الجنسي ليس هو السعادة .

والإشباع الجنسي موجود في أمريكا .

والسويد جنة بهذا المعنى فالبنيت تستطيع أن تدعو عشيقها إلى فراشها والأب والأم ينامان في الغرفة المجاورة دون حرج . . ومع ذلك فالسويد فيها أعلى إحصائيات الانتحار والجنون . . فهي ليست العالم السعيد الذي تصوره ماركوز .

وماذا يعدنا به ماركوز في مجتمعه مما لا نستطيع أن نفعله في مجتمعاتنا الحالية . . إن الفتيات والفتيان الهيبيز يتضاجعون ويتناكحون في الحدائق العامة بلا حسيب أو رقيب . . وإذا أغلقت باب شقتك عليك ولم تزعج الجيران فإنك تستطيع أن تغترب من الجنس ما تشاء حتى الشذوذ الجنسي والقانون في إنجلترا يحميك ويحرسك ويسهر عليك .

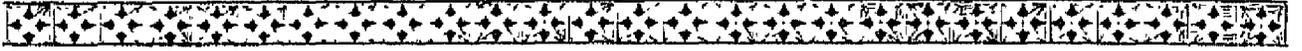
وهذا هو نفس المجتمع الشقي التعس الذي يثور عليه ماركوز . . ولكنه التملق . . إن ماركوز يتملق الطلبة والفئات المراهقة بهذا التدنى الرخيص والغوغائية الفلسفية ويحاول اكتسابها إلى جانبه بدغدغة غرائزها . . وهذا هو الوجه القبيح من ماركوز ومعول التخريب الذي يخفيه في قفازه الفلسفي الأنيق .
وماركوز هو بعض الرياح التي تهب علينا من الغرب والشرق لتقتلعنا من جذورنا .

ولا يصح أن نغلق نوافذنا دون هذه الرياح . . كما لا يصح أن نترك أنفسنا لها حتى تلقى بنا إلى خواء العربة بعيداً عن أرضنا وتربتنا . . وإنما علينا أن نتفتح على كل جديد ونقرأ بعيون ناقدة وعقل فاحص ينتقى ويختار ويضم إلى تراثه الحضاري كل جديد مفيد .

لا يصح أن نكون في عزلة عن العالم .

ولكن لا يصح أيضاً أن نترك أنفسنا تمزقنا الأفكار الوافدة والمذاهب المستوردة كل ممزق وتجعل منا شراذم وأفراداً ونشارة ومسحوقاً بشرياً لا يصلح لشيء سوى أن يكون مواطئاً أقدام المستغلين الأذكياء من شتى المذاهب .

طريقنا إلى النجاة



في مدينة فاس بالمغرب قضيت أجمل الأيام وأكثر الأيام إثارة للفكر والتأمل .

ومدينة فاس قطعة جميلة من التاريخ القديم ما زالت على حالها . . الشوارع الضيقة المبلطة الصاعدة الهابطة والبوابات والدروب التي لا تتسع للساثرين إلا إذا مشوا الواحد خلف الآخر . . والمساجد العتيقة . . ودكاكين الحدادين والفحامين والعطارين والدقايق بنفس حالها الأول ، البيوت الكالحة المهدمة من الخارج فإذا دخلتها أذهلتك النظافة والجمال والأعمدة المطعمة والزخارف العربية الأنيقة والفسقيات والترف العربي الأصيل . . وهم يقولون في فاس أن بيوتهم حالها مثل حال الدراويش . . من الخارج خرقة قديمة مهلهلة ومن الداخل قلب أبيض كالبللور . . وهذا صحيح .

وأهل فاس ناس طيبون يصلون الصلوات الخمس في أوقاتها ويبدوون حفلاتهم الموسيقية بمديح نبوي (محمد يا صاحب الشفاعة) ويفتتحون خطبهم السياسية بالبسملة والصلوة على محمد ، والكثير منهم متصوفون وأهل تواضع ، لا يدعون العلم ولا البركة ولا يسعون إلى شهرة ولا إلى ربح مادي ويؤثرون

العبادة والاجتهاد الروحي في خلوة بعيدا عن أعين الفضوليين ، وقد قضيت أياما أحاول الاتصال بواحد منهم دون جدوى . . كل واحد منهم يقول أنه لا يعلم من أمور التصوف شيئا ويوصيني بالبحث عن رجل آخر راسخ في العلم ، فإذا وجدت الآخر قال لي إنه فقير وعلى باب الله ، ولا يفهم شيئا ، ويوصيني بالبحث عن ثالث . . قطب وغوث ومفتوح عليه في الأمور الربانية . . فاذا وصلت إلى القطب قال انه تلميذ مبتدئ لا يفك الخط واستغفر الله من تهمة العلم وقال أنها حسن ظن لا يستحقه وأوصاني بالذهاب إلى باب الفتوح فلان وباب الفتوح يتنصل من الفتوح ويحولني على بحر العلوم ، وبحر العلوم يحولني على محيط المعرفة . . وهكذا . . في حلقة مفرغة من التواضع لا تنتهى . . وآخر الأمر أصل إلى باب جامعة القرويين ، وهي أقدم جامعة دينية ، فهي أقدم من الأزهر (تاريخها أكثر من ألف عام) وبها أكبر علماء الشريعة . . فيقابني هؤلاء العلماء بنفس التواضع والحياء والرقّة .

لا شك أن التراث الروحي مطبوع على كل باب وعلى كل قلب في هذه المدينة النادرة .

ولكن شيئا ما يثير التأمل يحدث الآن في فاس . . فقد دخلت أسلاك الكهرباء بيوت المدينة القديمة ، ومن ورائها الترانزيستور والتليفزيون ، وقاعات السينما انتشرت واحدة بعد الأخرى في الدروب والأزقة . . وصورة جيمس بوند ظهرت على الجدران وإلى جوارها أفيشات الجنس العارية وأبناء وبنات نفس الجيل الطيب المتدين المتصوف يخرجون من البيوت بقمصان مشجرة وميني جوب . وتشاهد في الزقاق البنت في ميني جوب تتأبط ذراع أمها التي تلبس العباءة والحجاب وتسير الاثنتان مترافقتين إلى السوق . وخارج فاس القديمة بنيت مدينة جديدة على الطراز الغربي ، شوارع واسعة وملاهي ومقاهي . . والمارسيديس والبويك وأحدث صيحات الفورد تمرق في الشوارع يفوح منها عطر الشانيل

وتقودها مغربيات رائعات الحسن مصنفات الشعر على أحدث فورمات حلاقي باريس .

والجيل الجديد يصلى الجمعة وينسى باقى الفروض . . ويتناقش فى نظرية داروين بحماس ولا يلتفت كثيرا إلى ما يقوله علماء الشريعة .

أن الطراز الغربى من الحياة يسحق الطراز الشرقى القديم سحقا .

والعقلية العلمية تطرد العقلية الصوفية وتحل محلها .

وقد قضيت أمسيات طويلة أفكر وأنا أذرع شوارع فاس وأقول لنفسى . . سوف يدخل العلم من الباب ويخرج الإيمان من الشباك .

وسوف يصيب هذا البلد فقر روحى كامل فى يوم من الأيام إذا لم يتدارك أهله الخطر . فتصبح مثل باريس أو لندن يتحدث كتابها عن العبث والعدمية ، ويتنحر شبانها ويدخلون مصحات الأمراض العقلية وتغرق فى الأبهة والثراء ولذات الحواس ، ويموت قلبها تدريجيا . . وتذكرت الشعور الذى سادنى ذات مساء وأنا فى باريس فقلت لنفسى : يبدو أن الله غير موجود هنا .

هذا أمر يمكن أن يحدث لفاس . . ويمكن أن يحدث لأى بلد عربى . . وكنت أعصر ذهنى وأقول . . ماذا نفعل . . ؟ ؟

ماذا يمكن أن نفعل حتى لا نفقد أنفسنا خلال هذا التطور السريع الساحق الماحق الذى يعطينا قشرة مادية ويسلبنا جوهرنا وشخصيتنا وأعماقنا .

لا شك أن ما يحدث الآن هو انتصار خطير واستعمار ناجح للأسلوب الغربى فى الحياة . . إنه استعمار يدخل علينا عقر دارنا ، بل هو يدخل علينا عقولنا وقلوبنا .

لن أقول ما يقوله الرجعيون بأن الواجب أن نغلق بابنا على أنفسنا ونرفض الكهرباء والتلفزيون ونرفض مبتكرات العلم الغربى لما تحمله فى طياتها من كفر

ودعارة . . ونرفض العلوم الغربية المبتدلة ونكتفى بكتاب الله .

مثل هذا الكلام لا يقوله إلا أحقق فضلا عن أن الكفر والدعارة موجودان منذ الأزل ومن قبل التليفزيون وكتاب الله نفسه يقول لنا . . سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

إنه يحضنا على أعمال الفكر والعقل واكتشاف سنن الحياة والتطور .

وإذا كان علماء الغرب قد سبقونا إلى العمل بالآية القرآنية فهذا ليس ذنب الغرب وإنما ذنبا وعلينا أن نتعلم ألا ندفن عقولنا في الرمال هربا من حقيقة جهلنا وتخلفنا .

ولسبب آخر يجب أن نتعلم . .

لأن الغرب يندق الباب على القارة الأفريقية ليمزقها من جديد ، هذه المرة مسلحاً بالصواريخ وأحدث مبتكرات العلم في فنون الدمار .

في نيجيريا والكونغو والفلبين واسرائيل تولد الأطماع ، هذه المرة أطماع ذات أنياب علمية فيها كل قدرات العلم الشرسة .

وواجب الدفاع عن الحياة والنفس يقضى علينا بأن نتعلم كيف نصارع وتتفوق في نفس الحلبة .

ولن تنفع تلاوة الآيات والأوراد في رد قذائف المورتر .

والقرآن نفسه يقول لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

والاعتماد على اقتراض السلاح عند اللزوم يأتي دائماً ومعه التبعية للترسانة الجديدة التي سوف نفترض منها السلاح ، وهذا يعنى الخروج من شرك للوقوع في آخر

إذن لا بد أن نصنع لأنفسنا بأنفسنا ونتعلم ونتابع أحدث ما أخرجت نظريات

لويس فيشر

ريتشارد رايت



اجتازيوسيلون

أندريه جيد
جائزة نوبل

ستيفن سبيتار

آرثر كسلر

هؤلاء المفكرون كانوا ماركسيين ثم نبذوا الماركسية واتقلبوا ضدها

علماء الغرب في فنون الدمار وفنون الخير معاً .

العلم ضرورى . .

ولكن المشكلة هي كيف نأخذ هذا العلم .

إن المنهج العلمى الموضوعى يقوم على استنباط قوانين الطبيعة من التجربة ومن استقراء الشواهد المحسوسة ، ولهذا فهو يتضمن رفض كل ما هو غيب ، وكل ما هو غير محسوس .

ولهذا تستبعد العقلية العلمية فكرة الله والقدر والجن والملائكة والعالم الآخر ابتداء ودون مناقشة . . وإذا لم نحل هذه المشكلة لطالب الابتدائى والثانوى الذى نلقى إليه بكتب الكيمياء والطبيعة والكهرباء فإنه سوف يدركها بنفسه وسوف يدخل في صراع من أفكاره الدينية الموروثة ، وهو صراع سوف ترجح فيه كفة العلم إذا اختار هذا الطالب طريق الجامعة ، وإذا غرق أكثر وأكثر في تخصص علمى .

وأكبر خطأ ارتكبناه في حق هذا الطالب اننا قسمنا التعليم إلى نوعين تعليم دينى ، وتعليم علمى .

هذه الازدواجية التى فصلنا فيها بين أزهى وجامعة كانت أكبر خطيئة لأنها كانت الباب الذى خرج منه المتعلم الجامعى من دينه . . كانت الطلاق البائن بينه وبين تراثه الروحى .

والعلم في نظرى لا يقبل الازدواج لأن الحقيقة واحدة كل ما في الأمر أن هناك حقائق في محيطنا البشرى يمكن معرفتها بالاستقراء ، والتجربة وحقائق إلهية لا يمكن معرفتها بالتجربة ، ولا يمكن أن تأتينا إلا وحيًا ، ولا تناقض بين الاثنين ، ولا يصح أن يستبعد أحد العلمين العلم الآخر .

ولا بد أن تضم الجامعة كلا النوعين من التعليم من سنواتها الأولى إلى سنواتها

الأخيرة ، وأن يكون الدين مادة أساسية ، وأن تكون المعارف الإلهية مادة أساسية .

وأن يكون صراع الدين والعلم في ذهن الطالب صراعاً بصوت عال يشترك فيه الطالب والمدرس من بدايته وأن يتعرف الطالب من البداية على أن هناك نوعين من الحقائق . . حقائق موضوعية كالكهرباء والذرة والبخار يمكن أن يجتهد فيها بالتجربة وحقائق إلهية خافية لا يمكن أن تأتي إلا وحيّاً عن طريق الرسائل . . وهذه الحقائق وسيلة اليقين فيها القلب وليس العقل .

الحقيقة الإلهية حقيقة إشراقية تشرق على الوجدان ، ولا تطلب بالتمحيص العقلي ولا يبرهن عليها بالحجج المنطقية . . لأن ذلك ينزل بالحقيقة الإلهية إلى درك التجارب العملية ، وهو ما لا يمكن أن ينتهي إلى يقين أبداً .

ولا تناقض بين العلوم الإلهية والعلوم الموضوعية . . كل الفرق أن العلوم الإلهية أشمل وأكثر إحاطة وأنها علوم يقينية بينما العلوم الموضوعية علوم جزئية احتمالية إحصائية تتغير فيها النظريات وتتبدل .

وسوف يقتضى هذا تغييراً في المناهج العلمية والمقررات وكتبا جديدة توضع .

وسوف يقتضى أن يخرج متصوفة فاس من خنادقهم وعزلتهم ليفيدوا الناس بما وصلوا إليه في خلوتهم . . فليس تصوفاً أن يحاول كل واحد أن ينجو بنفسه . . وإنما التصوف الحقيقي هو الذى يهدف إلى خلاص الكل ونفع الكل . والعزلة والتفوق والانغلاق ليس فى سنة نبينا ، ولا فى سيرته . . والكتم والسرية بلا مقتضى هى كهانة ماسونية وليست إسلاماً .

بهذا يمكن أن نأمل فى أن نأخذ من الغرب علمه دون أن نفقد تراثنا

الروحى .

ذلك التراث الذى كان أعظم عطاء أعطته هذه الأرض مهبط الأديان

وبذلك يمكن أن نأمل في أن يخرج من مدارسنا كل يوم من يستطيع أن يرد على ماركس وفرويد ، وأن لا نكون كالذئب الذي يقع في شرك خيوط العناكب الواهية الذي تحيكه كل يوم العقول اليهودية العبقرية التي تريد أن تصيبنا في القلب . . في الصميم ، قبل أن تنقض علينا لتلتهمنا ، وسوف تكون هذه التربية العلمية أكثر من مجرد خطة علمية . . سوف تكون خطة سياسية للاهتداء إلى فكر جديد نابع من تراثنا وواقعنا أفضل من التقليد والجرى وراء الموضات الفكرية الأجنبية .

ولننظر إلى ما نفعله الآن في السياسة .

أنا كدول نامية لا ننظر إلا إلى تجربتين رائدتين . . الشيوعية في الشرق . . والرأسمالية في الغرب ولا نكاد نتصور أن هناك حلا آخر . . فإذا وجدنا أن كلا التجربتين لا تصلحان لنا ، بدأنا نبحث عن حلول وسطى بين المدرستين وبدأنا نصنع منهما تركيبة ملائمة .

ولو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا فيه نبعا من الأفكار والحقائق تسبق النظامين تقدما ومعاصرة ، ولوجدنا كل ما حسبناه جديداً في الاشتراكية العلمية هو أمر قديم قدم ثلاثة عشر قرناً في الإسلام . . فقد جاء الإسلام من البداية مقررأ مبدأ المساواة في الفرص ، وضمان حد الكفاية للفرد وتحقيق التوازن بين حرية الفرد في الربح وحقوق المجتمع ، ومبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة (القطاع العام والخاص) ، ومبدأ تدخل الدولة في الاقتصاد ، وهو ما نسميه اليوم بالاقتصاد الموجه . . ومبدأ مصادرة أموال المستغلين لصالح الفقراء والمظلومين .

فالإسلام لا يسمح بالطبقية ، ويحرم تداول المال بين فئة محدودة من الأغنياء .

« كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ٧ - الحشر

والعزة في الإسلام بالتقوى وليست بالغنى .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ١٣ - الحجرات .

إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
(حديث نبوي)

الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .
(حديث نبوي)

والآيات التي فهم منها البعض معنى طبقياً لم تكن تعنى هذا المعنى على الإطلاق .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (أى خلقنا الذى يتفوق بعقله ، وخلقنا الذى يتفوق بيديه) ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً (العقل يسخر اليدين هذه هي الطبيعة والمنطق) .

« الله فضل بعضكم على بعض في الرزق »

٧١ - النحل

« ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » ١٩ -
الأحقاف .

ومعنى ذلك أن الدرجات يقصد بها تفاوت الأرزاق بتفاوت الأعمال
(ولكل درجات مما عملوا) .

درجات الدنيا والآخرة . . وهي ليست بالوراثة ولا بالطبقة ، وإنما بالأعمال
والاجتهاد . . فالملكية كلها لله (لله ملك السموات والأرض) وإنما نمتلك
أموالنا استخلافاً . . الله يستخلفنا عليها .

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ٧ - الحديد .

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »

٣٣ - النور

والاسلام ضد التفاوت الفاحش في الثروات وهناك أكثر من آية ضد الترف والمترفين « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين »

١١٦ - هود

« حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذ هم يجأرون » ٦٤ - المؤمنون

« إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها (أى فسقوا في أمرنا)

فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ١٦ - الاسراء

وهو مع ذلك ليس ضد الغنى إذا كان بضوابط .

« لا بأس بالغنى لمن أتقى » (حديث نبوى)

« نعم المال الصالح للعبد الصالح » (حديث نبوى)

« في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ١٩ - الذاريات

أما الحد الأدنى للحياة فيجب أن يكون مكفولاً للجميع .

الناس شركاء في ثلاثة الماء والكأ والنار .

(حديث نبوى)

وثرة الغنى لا تكون ثروة مشروعة إذا كان في المجتمع فقير واحد لا يجد القوت

« ليس منا من بات شبعانا وجاره جائع »

(حديث نبوى)

« من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »

(حديث نبوى)

وقد رأينا نماذج من تدخل الدولة في الاقتصاد على عهد عمر بن الخطاب ..

فقد صادر عمر كل زيادة غير معقولة في أموال ولاته بما فيهم سعد ابن

أبى وقاص وخالد بن الوليد والصحابى أبو هريرة وعمرو بن العاص وغيرهم

وذلك لمجرد شبهة استفادة الوالى من منصبه .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ١٨٨ - البقرة

ورفض عمر تملك المسلمین للأرض المفتوحة بالغزو واعتبرها ملكية جماعية كما رفض تملك الأرض الحمى (الوقف الخیری) والمناجم والثروات فی باطن الأرض واعتبرها فی حکم القطاع العام .

ومنع عمر بیع اللحوم وأكلها یومین متتالین من كل أسبوع حیما قلت اللحوم . . ومن كان یخرج عن هذا المنع كان یضربه بالدرة قائلا : « هلا طویت بطنك یومین » .

وباع عمر السلع المحتكرة جبرا من محتكريها بثمن المثل وكان یسعر بعض السلع منعا للتحكم والاضرار بالناس .

وقال عمر عند موته كلمته المشهورة حیما رأى حوله نماذج الثراء الفاحش لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء .. واعتبر الإمام ابن حزم امتلاك الأرض حراما إلا لمن یزرعها .

واعتر أبو ذر الغفاری أن ثروة الأثرياء لا تكون حلالا إذا كان فی المجتمع فقیر واحد لا یجد الكفاف .

وحرمه المال الخاص فی الإسلام حقيقة مثل حرمة المال العام .

كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله .

(حدیث نبوی)

ومن یتعدى على المال الخاص تقطع یده كمن یتعدى على المال العام .

والإسلام یجمع بین المنطق الشكلى والمنطق الجدلى (المنطق الشكلى هو

المنطق الأرسطي القائل بثبات الموجودات فالشجرة اليوم هي الشجرة غدا . .
والمنطق الجدلي هو المنطق الهجلى الديالكتيكي القائل بتغير الموجودات الدائم ،
فكل موجود يحمل بذرة فنائه فيه) . . وهما منطقا الثبات والتطور . .
فالإسلام يجمع بين التمسك بالأصول العقائدية الثابتة ، وبين الاجتهاد في
الفروع والتفاصيل والتطبيقات (وهو ما نسميه بالتطوير) . . ويقول بتغير الأحكام
الفرعية مع تغير الأزمنة والأمكنة . . وهو ما يسميه الفقهاء ، اختلاف زمان
ومكان لا اختلاف حجة وبرهان . . ومن هنا كان الخديث النبوى . . بأن
اختلاف الأئمة رحمة . . لأنه اختلاف في التفاصيل اقتضته الظروف المتغيرة .
ولهذا نقول بأن السياسة الاقتصادية في الإسلام هي سياسة إلهية من حيث
الأصول ووضعيه من حيث التطبيق والتفاصيل .

ويقوم المنهج الإسلامى فى أصوله الإلهية على أساس فكرة التوفيق بين
مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فهو لا يسحق الفرد لصالح الجماعة
(كما فى الشيوعية) . . ولا يسحق الجماعة لصالح الفرد (كما فى الرأسمالية) .
ولكن إذا استحال التوفيق كما فى حالات الحروب أو المجاعات أو
الأوبئة فإن التطبيق الإسلامى يختار المصلحة الجماعية ويقرر أن يقتسم
الناس الطعام بالتساوى ولو عاشوا جميعا على أنصاف بطونهم .

ويقول عمر فى عام المجاعة :

لو لم يجد الناس كفايتهم من القوت فعلى أهل كل بيت أن يستضيفوا
مثل عددهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف
بطونهم .

ولكن هذا الاجراء هو اجراء طوارئ . . وحكمه حكم الجراحة العاجلة
فى حالة الخطر . . وهو خروج من الأصول إلى الفروع (لتغير الظروف
والملايسات) . . وهو ليس الدستور الإسلامى للحياة العادية .

أما في الحالة العادية فالمنهج الإسلامي يلتزم بالأصول الإلهية وهي استهداف التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

« لا تظلمون ولا تظلمون » ٢٧٨ - البقرة

« لا تبخسوا الناس أشياءهم » ٨٥ - الأعراف

« لا ضرر ولا ضرار » (حديث نبوي)

وفي حديث نبوي آخر تلخيص جميل لهذا التوازن الدقيق بين المصلحتين :

إن قوما ركبوا سفينة فصار لكل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأسه فقالوا له ماذا تصنع قال هذا مكاني أصنع فيه ما أشاء . . فإن منعه نجا ونجوا . . وان تركوه هلك وهلكوا .

ولهذا يخطئ من يتصور الإسلام رأسماليا .

ويخطئ من يتصور الإسلام شيوعيا .

ويخطئ من يتصور الإسلام وسطا حسابيا بين النظامين أو تلقيفا بينهما . .

فالحقيقة أن الإسلام منهج اقتصادي متميز ينطلق من منطلقات مختلفة . . وان اتفق في هذه النقطة أو تلك مع هذا النظام أو ذاك .

فهو ينطلق من فكرة التوفيق والمصالحة والتعاون والتكامل . . وليس من

فكرة الصراع الطبقي والتناقض .

وهو يهدف إلى التوازن بين الفرد والمجموع وليس إلى تذويب الأفراد

في المجموع (كما في الاشتراكية العلمية) . . أو إلى التضحية بالمجموع

لصالح قلة من الأفراد الرأسماليين (كما في الفكر الرأسمالي) . . إنما التوفيق

والمصالحة هو دائما المنطلق .

وإذا كنا نجد في الاقتصاد الرأسمالي أن حرية الفرد في الربح هي الأصل

وأن تدخل الدولة هو الاستثناء .

وإذا كنا نجد في الاشتراكية العلمية أن تدخل الدولة وانفرادها بالنشاط الاقتصادي هو الأصل . . وإن أبحاثها بعض الحرية للفرد هو الاستثناء .
فإننا في الإسلام أمام شيء مختلف . .

فالحرية الفردية في الربح أصل في المنهج الإسلامي والملكية والفردية أصل . . كما أن تدخل الدولة في الاقتصاد أصل والملكية العامة أصل .

وحين يقرر الإسلام الزكاة فإنه يشرع تدخل الدولة ويقيم أول مؤسسة ضمان اجتماعي . . وهو يجعل هذا التدخل واجبا حتى لا يصبح المال دولة بين الأغنياء وحكرا لطبقة دون باقي المواطنين .

والملكية العامة مقررة كأصل في أراضى الوقف الخيري والمعادن والكنوز في باطن الأرض والأرض المفتوحة بالغزو والمساجد . . كل هذه ملكية عامة للدولة .

كما أن الملكية الفردية أصل يقطع يد من يتعدى عليه .

وحرية الفرد في الربح أصل . . ولكن الإسلام لا يتركها مطلقة . . وإنما يضع عليها قيودا فلا يجوز إنتاج الخمر أو التعامل بالربا أو الاحتكار أو حبس المال عن الانتاج (الاكتناز) أو صرفه في سفاهة أو جمعه من الرشوة أو الاضرار بحقوق الآخرين أو المغالاة في الأسعار .

ويتميز منهج الاقتصاد الإسلامي بشيء آخر لا نجده في الرأسمالية . . أو الاشتراكية العلمية . . هو إشباعه للحاجات الروحية وليس المادية وحدها . . فمعاملة الله وإرضائه أصل في الإنفاق وفي الإحسان . . ويقول نبينا عليه الصلاة والسلام . . أن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد المحروم .

وهذا يعطى للمنهج الاقتصادى سموا فى الهدف وشرفا فى المعاملة . .
فالمؤمن يشعر أنه يتعامل مع الله رأسا .

كما أنه يمنح الحاكم رقابة مزدوجة . . هى رقابة الله ورقابة الضمير على
الأفعال . . زيادة على رقابة مأمور الضرائب .

وهذا الإشباع الروحى يحمى المجتمع . . من الخواء النفسى والخراب
العصبي الذى وقعت فيه مجتمعات الرخاء الأوروبية مثل السويد أو الاشتراكيات
الملحدة فى الشرق حيث نجد أعلى نسبة من الجنون والانتحار رغم توفر
ضمانات العيش للجميع .

والسبب أن النظام لا يشبع الحاجات الروحية ولا يروى ذلك العطش
المقدس فى داخل الإنسان العطش إلى الله الحق رغم أنه يشبع البطن والغرائز
وهم لا يفهمون هناك أن الإنسان ليس مجرد بطن وغرائز .

والصبغة الروحية للنشاط الاقتصادى شرط من شروط الإسلام . .
فالعامل الصالح المفيد والنافع لا يكفى عندنا كهدف للمؤمن . . ولا يكون
هذا العمل مقبولا إلا إذا قصد به العامل وجه الله . . والله غير محتاج .

« إن الله لغنى عن العالمين » ٦ - العنكبوت

ولكن العامل هو المحتاج لهذا التوجه لأنه يستمد به القوة والمدد من ربه . .
وإنما عمل الكافر مهما كان صالحا فهو كرماد اشتدت به الريح فى يوم
عاصف لأنه يتصور أن توفيقه هو من عند نفسه . . وأن نجاحه مهارة وشطارة ،
فهو من زرع الأنانية وحصاد الغرور .

ولا انفصال فى الإسلام بين ما هو روحى وبين ما هو مادى .

وفى حديث قدسى أن الله يقول يوم القيامة :

يا بن آدم مرضت فلم تعدنى . . قال رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ . .

قال تعالى : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده . . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . . قال رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين . . قال تعالى : استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه . . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدتني عنده . . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني . . قال رب : كيف أسقيك وأنت رب العالمين . . قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي .

فالعامل الصالح الخالص لوجه الله هو مادي روعي معا . .

يقول عمر بن الخطاب :

والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة .

والمال لا يقصد لذاته في الإسلام . . ولكنه يقصد كوسيلة إلى تقوى وسبيل إلى عمل صالح ومرحمة ومودة . . وهذا الفرق بين معنى المال في اقتصاد مادي رأسمالي واقتصاد مادي اشتراكي فهناك ينظر إلى المال كقوة اقتصادية ووسيلة للسيطرة والغلبة والفعل دون ظلال روحية خارج هذا المعنى الجاف الجامد .
أما نحن فنقول :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة »

وهذا يجعل توظيفنا للمال في التعمير والتنمية شيئاً أشبه بالصلاة أو الفروض التعبدية نرجوه الآخرة ورضا الخالق .

والغنى الذي لا ينفق من ماله لصالح من حوله هو عندنا في مرتبة الكافر « رأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » ١ - ٣ - الماعون .

ولو مارسنا تنفيذ الخطة الاقتصادية بهذه الروح الدينية التعبدية فإننا

سوف نصنع المعجزات فى سنوات قليلة ونلحق بركب التقدم بسرعة الصاروخ .. فنحن عندنا دول عربية تتكامل اقتصاديا فيما بينها لتؤلف أمة يمكن أن تكون أغنى وأقوى من الأمة الأمريكية . . رقعة جغرافية فيها البترول والحديد والفحم والنحاس والمنجنيز والذهب واليورانيوم بالإضافة إلى محاصيل زراعية وفيرة وثروة حيوانية وثروة سميكة بلا حدود وأيدى عاملة بلا عدد . . وتصوروا إمكانيات السعودية والكويت ودول الخليج مع إمكانيات مصر والسودان والشمال الأفريقي إذا خططنا لربطها والاستفادة بها .

إن السودان وحده فيه عدة مديريات كل مديرية بحجم فرنسا . . وأكثر محاصيل المانجو والموز هناك تتعفن وتقع من على شجرها ولا تجد من يأكلها أو يعصرها .

ونحن الآن فى عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى (السوق الأوروبية المشتركة . . والسوق الشيوعية المشتركة) .

وفى بلادنا طاقة مادية وطاقة روحية إذا توحدنا صنعنا معجزة .

ألم يقل برناردشو :

« إني أرى فى الإسلام دين أوروبا فى أواخر القرن العشرين » .

ومن قبله جوته :

« إذا كان هذا هو الإسلام أفلا نكون مسلمين »

ثم جاك أوسترى أستاذ الاقتصاد الفرنسى :

« إن طريق التنمية ليس محصورا فى الرأسمالية والاشتراكية بل هناك اقتصاد ثالث راجح هو الاقتصاد الإسلامى يبشر بأسلوب كامل للحياه يحقق كافة المزايا ويتجنب كافة المساوئ (الترجمة للدكتور محمد شوقى الفنجرى فى كتابه عن الاقتصاد الإسلامى) .

وفي البحث في أعماق الإسلام والقرآن والسنة عن هذا الخط (الاقتصادي الاسلامي) والبحث في حدوده ومواصفاته ونجاتنا جميعا من التخبط بين الرأسمالية وبين الاشتراكية العلمية (وهي غير علمية كما رأينا) . . وفيه نجاة لنا من ترفيع حضارتنا العظيمة بحضارات هي في الواقع في حالة شيخوخة وانحلال (كالرأسمالية) . . أو في طور تجربة واختبار (كالاشتراكية العلمية) . . وكلتا الحضارتين مادية تقوم على الفلسفة الظنية وتستهدف المصالح المادية الجافة دون ظلال من روح أو معارف إلهية أو يقين تسانده السماء ويؤيده الله . .

والاقتصاد الإسلامي كما رأينا يعطينا المزايا التي في الاشتراكية العلمية وعليها زيادة من الاشباع الروحي وحماس العقيدة مع وجهات نظر أكثر تقدما ومعاصرة وأساليب أكثر انسانية ، وهو بالإضافة إلى ذلك يجنبنا جميع مزالق الفكر المادي وأخطائه ومظانه وما فيه من غربة بالنسبة لنا كفكر مستورد يقف عند باب قلوبنا ولا يدخلها مهما استعان الحاكم بقوة الاعلام وجبروت السلطة ونحن شعوب مؤمنة . . الإيمان عندنا هو العماد واللب والنخاع . وفي هذا الوادي عرفنا الله وعبدناه . . منذ سبعة آلاف سنة حينما كان هؤلاء المتحضرون برابرة لا يعرفون كيف يتكلمون .

والفكر المؤمن والفكر الملحد يطرد كل منهما الآخر ولا يمتزجان كالزيت والماء ولا بلدان إلا سفاحا ولا يتزاورجان إلا قهرا . .

ومحاولات التوفيق بين الماركسية والإسلام التي يقوم بها أمثال مكسيم رودنسون أو جارودي هي في واقع الأمر تلفيق لا توفيق . . والدوافع الخافية وراء تلك المحاولات هي فكرة مكيافيلية لترويج بضاعة انتهى موسمها (وهي الماركسية) ، بوضع ماركة الإسلام عليها . . محاولة للتسلل إلى الشرق الأوسط داخل حصان طروادة . . وكما نعلم بدأت الماركسية بإعلان الحرب على الدين فلما فشلت أعلنت الهدنة وطلب الماركسيون من أتباعهم عدم التعرض للدين . . فلما فشلت الهدنة بدأت محاولات التحالف وبدأ دراويش الماركسية يتكلمون

بلغة أهل الله ويسبحون للحى القيوم ويعلمون الزواج الشرعى بين الماركسية والإسلام وهو زواج باطل ولا يمكن أن يكون إلا سفاحا . . فأما أن يكون الله موجودا كما نقول . . أو يكون غير موجود كما يقولون . . ولا رأى ثالث ولا بضاعة « اسلاموماركسية » إلا عند المحتالين الذين يريدون التسلل إلى الفكر الدينى لاحتوائه . . وحكاية الماركسى الذى يحمل كتاب ماركس فى يد والمسبحة فى اليد الأخرى هو إنسان يدجل على نفسه أو علينا أو هو إنسان مصاب بانفصام فى الشخصية وفى حاجة إلى علاج عاجل من هذا التناقض والتخليط . . ونحن لا نرى داعياً لهذا الخلط والتلفيق . . ونرى أن الإسلام يقدم كافة الحلول العصرية لمشكلة العدالة الاجتماعية .

فلماذا نعانى الفطرة . . ولماذا لا نعود إلى الطبيعة السمحة البسيطة . . لماذا لا نسمى مكتسباتنا وإنجازاتنا وخطواتنا التى أحرزناها على طريق التقد باسمها الحقيقى . . لماذا لا نسميها عدالة إسلامية واقتصاداً إسلامياً . . ما دامت بالفعل موجودة فى كتابنا وخارجة من تراثنا . . لماذا لا نسمى المولود باسمه الشرعى ما دام مولوداً شرعياً بالفعل ؟ . . إنه لن يكون مجرد اسم جديد . . وإنما فتح . .

سوف نستطيع أن ننقد الموجود من خلال تراثنا ونطور الموجود من خلال هضمنا لتراثنا . . وسوف نصل إلى حلول أقرب إلى روحنا وشخصيتنا .

إنه فتح طريق إلى مزيد من العدالة للفلاح والعامل والجندي والمثقف . ثم هو تعرف على النفس . . وميلاد للشخصية العربية . . وبعث لطاقة هائلة أقوى من الذرة .

مارد راقد يخافه الكل . . ويهابه الشرق والغرب . .

اسمه الإسلام . .

وديننا لا يمنعنا من الاستفادة من المعارف المتاحة . . بل هو يحضنا على ذلك حضاً ويأمرنا بطلب العلم ولو فى الصين .

وديننا مرن وطيع وعصرى وسمح . . ويضم فى عبادته كل الأديان فى حنان
وأخوة . . ويجعل من كل الأجناس أسرة واحدة . . الأسود والأبيض والأحمر
والأصفر . .

ألم يجعل من سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى أخوة يحاربون
صفاً واحداً . .

ألم يقل نبينا :

« سلمان منا آل البيت »

لماذا يخافون الإسلام ؟ . .

لماذا يخاف العالم من طبيبه ؟

صدر للمؤلف

- ١ - الله والإنسان - مجموعة مقالات كتبت في صيف ١٩٥٥ .
- ٢ - أكل عيش - مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٣ - ١٩٥٤
- ٣ - عنبر ٧ - مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .
- ٤ - شلة الأنس - مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٢ - ١٩٦٤ .
- ٥ - رائحة الدم - مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .
- ٦ - إبليس - دراسة كتبت في عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨
- ٧ - لغز الموت - دراسة كتبت في عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .
- ٨ - لغز الحياة - دراسة كتبت في عام ١٩٦٧ .
- ٩ - الأحلام - دراسة كتبت في عام ١٩٦١ .
- ١٠ - اينشتين والنسبية - دراسة كتبت في عام ١٩٦١ .
- ١١ - في الحب والحياة - مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ - ١٩٦٦ .
- ١٢ - يوميات نص الليل - مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ - ١٩٦٦ .
- ١٣ - المستحيل - رواية كتبت في عام ١٩٦٠ .
- ١٤ - الأفيون - رواية كتبت في عام ١٩٦٤ .
- ١٥ - العنكبوت - رواية كتبت في أوائل عام ١٩٦٥ .
- ١٦ - الخروج من التابوت - رواية كتبت في أوائل عام ١٩٦٥ .
- ١٧ - رجل تحت الصفر - رواية كتبت في عام ١٩٦٦ .
- ١٨ - الإسكندر الأكبر - مسرحية كتبت في صيف ١٩٦٣ .
- ١٩ - الزلزال - مسرحية كتبت في صيف ١٩٦٣ .
- ٢٠ - الإنسان والظل - مسرحية كتبت في عام ١٩٦٤ .
- ٢١ - غوما - مسرحية كتبت في شتاء ١٩٦٨ .
- ٢٢ - الشيطان يسكن في بيتنا - مسرحية كتبت في أبريل ١٩٧٣ .
- ٢٣ - الغابة - رحلة إلى أفريقيا الاستوائية كتبت في أكتوبر ١٩٦٣ .
- ٢٤ - مغامرة في الصحراء - رحلة إلى الصحراء الكبرى في صيف ١٩٦٩ .
- ٢٥ - المدينة (أو حكايات مسافر) - مجموعة سفريات إلى أوروبا بين ١٩٥٦ - ١٩٦٨ .
- ٢٦ - اعترفوا لي - مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .
- ٢٧ - ٥٥ مشكلة حب - مختارات من رسائل القراء بين ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .

- ٢٨ - اعترافات عشاق - مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ - ١٩٦٦ .
- ٢٩ - القرآن محاولة لفهم عصري - دراهمة كتبت في شتاء ١٩٦٩ .
- ٣٠ - رحلتى من الشك إلى الايمان - دراسة كتبت في عام ١٩٧٠ .
- ٣١ - الطريق إلى الكعبة - رحلة حج كتبت في عام ١٩٧١ .
- ٣٢ - الله - دراسة كتبت في أوائل ١٩٧٢ .
- ٣٣ - التوراة - دراسة كتبت في أوائل ١٩٧٢ .
- ٣٤ - الشيطان يحكم - مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .
- ٣٥ - رأيت الله - دراسة كتبت في صيف ١٩٧٣ .
- ٣٦ - الروح والجسد - مجموعة مقالات كتبت في شتاء ١٩٧٣ .
- ٣٧ - حوار مع صديقي الملحد - مجموعة مقالات كتبت في مارس ١٩٧٤ .
- مجموعات المؤلفات الكاملة :
- ٣٨ - قصص مصطفى محمود - صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٣٩ - روايات مصطفى محمود - صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٠ - مسرحيات مصطفى محمود - صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤١ - رحلات مصطفى محمود - صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٢ - الماركسية والإسلام - صدر عن دار المعارف في فبراير سنة ١٩٧٥ .

حازت روايته « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة عام ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٢٠٢٨

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
١/٧٥/٢٠